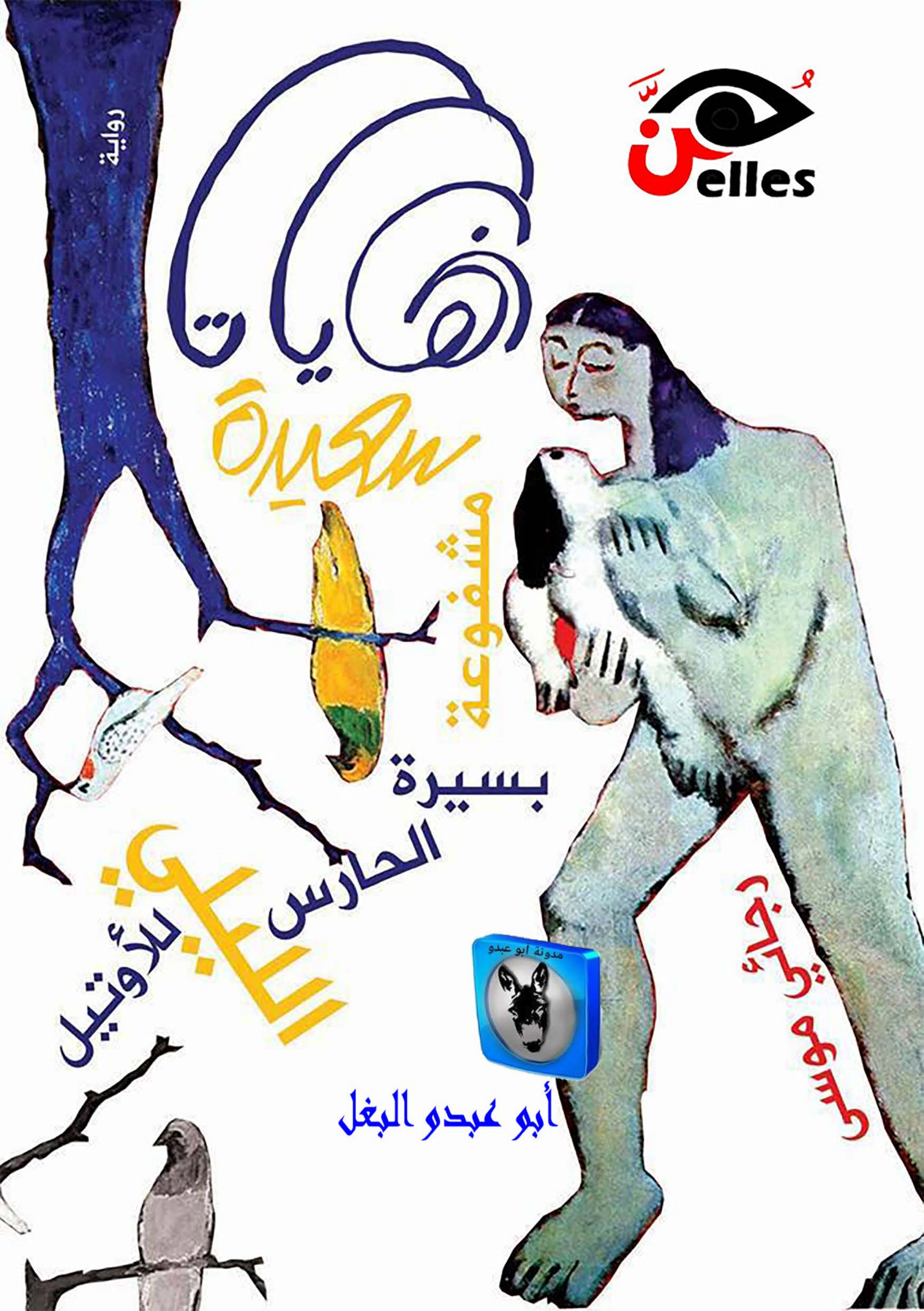

elles
رواية
نهايات
سعيدة
مشفوعة
بسيرة
الحارس
الليلي
للأوتيل
حسن نجمي

نهايات سعيدة

مشفوعة بسيرة الحارس الليلي للأوتيل

رجائي موسى

إلى إسماعيل

القسم الأول

سيرة الحارس الليلي للأوتيل

غير مبرَّر أبدًا على الإطلاق هذا العنف الذي يصعد كل ليلة من هذا النهر. كل ليلة أنتظر عروس النيل لكي تصعد، وكل ما أسمعه هو صوت صراخ قتلىَ.. أطفال وحيوانات ونساء. هل أذهب إلى الشرطة وأخبرها بما أسمعه؟ ربما تكون هناك جريمة، وأرواح القتلى تعاني من الثأر. لو هناك، بالفعل، جثث، ربما يجب على الشرطة أن تخرجها لكي تُدفَن باحترام في مقابرها. إن الميت يموت بزيارة الأهل له، وبتوزيع الكعك على روحه. إن لم يفعلوا ذلك فسيعود إلى الحياة.. ستمتلئ المدينة بالموتى الأحياء.. إن الموتى يحملون ذاكرة تالفة، يجب تذكيرهم دائمًا بأنهم موتى. الميت لا يعرف أنه ميت. هل تقدر الشرطة على إسكات هذه الأصوات؟ وما شأني أنا بالموتى؟ سأتركهم هنا، ربما تبحث الشرطة عن القتلة، وربما أكون أحدَهم، وأجد نفسي فجأة متهمًا بعددٍ من الجرائم، ربما تكون جرائمَ تاريخية، ربما تكون هناك جثثٌ تعيش في هذا النهر قبل ولادتي، وسأكون أنا قاتلها. أنا أعرف جيدًا ألاعيب الشرطة في هذه المدينة، عندما تجد جثة، عليها أن تجد مُبدعها. سأكون أنا مبدع عدد لا نهائي من الجثث. لم أقدر أن أبدع أطفالًا. عشرين عامًا أضاجع امرأةً، ذات المرأة كل ليلةٍ، وأنتظر طفلًا كل صباح، ولا

يأتي. أجرب امرأةً أخرى، ولكن من هذه الأخرى؟ وماذا أفعل بالمرأة التي أتركها كل مساء. آه تذكرت.. أنا لا أضاجع امرأتي في الليل. بالليل أكون هنا مع أصوات القتلى، بمحاذاة النهر، ها أنا أكذب، أنا أضاجع امرأتي في أول النهار، ثم أذهب إلى النوم، وعندما أستيقظ، أسألها: هل جاء الطفل؟ هل شيء تحرَّك داخلك؟ تضحك، وتقول باستهزاء، ربما داخلك أنت، فلنرَ، وتضغط على بطني، وأنا أتلوَّى وأضحك، لالالا، لا شيء. أحس تحت ضغط يديها القويتين بأن بطني سينفجر بالماء. ماء يشبه ماء النهر. وأشم رائحة موت تصعد من رئتي، وضحكي يشبه مواء القطط الجائعة. يصيبني الرعب، فأجلس على طرف السرير وأبكي. تجلس امرأتي في مقابلتي، وتمسك بيدي وتقول:"لا تبكِ، هذا أمر الله. أنت طفلي وأنا طفلتك".

سأدبر أمري، سوف أنزل إلى النهر، وأبحث عن طفل. إني أسمع أصوات رُضَّع كثيرين. سأجد واحدًا منهم. سألفه بملابسي، وأخبئه تحت ذراعي، وأذهب به إلى البيت. سأذهب مبكرًا، قبل أن تستيقظ امرأتي، واخلع عني ملابسي، وأدخل إلى امرأتي. سأفتح ساقيها. سأشد ركبتيها إلى أعلى. ستضحك ضحكتها الرائعة، وأنا

سأقول لها كلمتي المعتادة، الكلمة البذيئة التي تشعلها وتشعل عظامي وتدغدغ جلدي، وفي ذات اللحظة سأدخِلُ الطفلَ إلى فرجها. سأدفعه إلى الداخل، حتى يستقر في رحمها. أنا أعرف أن جسدها لن يلفِظَ هذا الجسد الميت. إننا نحمل جثثًا كثيرةً، فلن يحدث أي شيء إذا أضفت أنا جثة أخرى. العالم في حاجة إلى جثة أخترعها. كنت أفكر في الأمر كثيرًا. أصبح التفكير في هذا الشأن مثل عادة يومية. أفكر مثلما أدخن ومثلما أتبوَّل. صار التفكير بمرور الوقت هلوسة. صار عملة زائفة.

أنا إسماعيل حارس هذا الأوتيل (طاب مساؤكم)، الذي يطل على النيل مباشرة، وهو ليس من نوع الأوتيلات الكبيرة، ولا الصغيرة الشأن، التي توجد في شارع الجمهورية أو في العتبة، يكفي هذا الأوتيل أنه يطل على النيل مباشرة؛ يعني بمجرد أن تفتح النافذة ستجد النيل متمددًا أمامك (اكتب هنا كلمة "متمددًا" وأفكر برجلٍ يطلب صدقة)، والحياة فيه تبدو هادئة ونظيفة مثل المرايا المغسولة. لم أهتم يومًا بالحياة داخل الأوتيل، ولم أسأل يومًا ماذا يفعل الداخلون، وكيف يمضون وقتهم، وكم يدفعون عند المغادرة، كل ما أعرفه مجرد حكايات أسمعها صدفةً من عمال الغرف، أثناء مرورهم

صباحًا ومساءً من البوابة الإلكترونية التي أقف عندها. أشعر أحيانًا بأن الأوتيل يبدأ من بعد البوابة وينتهي قبل الوصول إليها. الناس تصاب بالخرس لحظةَ ولوجِهم البوابة، وأنا أصاب بالإرتباك. لقد عرفت بأن مهمتي عظيمة وبالغة الخطورة؛ ففي رقبتي سلامة كل زبائن وعمال الأوتيل. لقد قال أحدهم عندما سلَّمني الوظيفة، لم تعد الآن لديَّ القدرة على تذكر صورته، ما يهمني أنا من صورته؟ ربما تتبدل ولكن ستظل كلماته هي الأمانة التي أحملها بداخلي وأتبعها: "الأوتيل أمانة في رقبتك يا إسماعيل، إوْعَ عينك تغفل ولا دماغك تشرد في حتّة، خليك صاحي، وانت عارف إننا في أيام وِحشة". كنت أعرف أننا في أيام سيئة بالفعل، ولكني لم أكن أتصور أني سأواجه سوءَها وأنا واقف على باب إلكتروني. عندما ولدتني أمي، كان أبي ميتًا منذ تسعة أشهر كاملة، مما جعل الزقاق الذي كنا نسكنه في ملوي، يتساءل كثيرًا حول نسبي، أصلي وفصلي، وكانت أمي تواجه شكوكًا مستمرَّة، وإهاناتٍ مُضمَرَة وصريحة. قالت لي أمي: لا تلتفت إلى ما يقال، كان أبوك قويًّا، ولم يكن جاهزًا للموت، جاءه فجأَة، وهو في تمام صحته، ومات في نفس الليلة التي نمت معه فيها. كان يدخلني بسرعة ويخرج بسرعة

وكأنه على موعد مع امرأةٍ أخرى. كان يغمغم كلمات لم أفهمها، كان يتصبب عرقًا ويلهث، ولا يلتفت لي وأنا تحته أتوجَّع مثل بهيمةٍ. ربما كان يعرف أنك ستأتي. كان يقول لي لو كان ولدًا فسأسميه إسماعيل، ولو بنتًا فسأسميها.... ويسكت. لم يفكر أنه سينجب بنتًا قَط. كنت أدور على كل المنازل الغنية مع أمي، لكي نجمع بقايا الخبز. نبيع جزءًا منه، والجزء الأخر نأكله، أمي وأنا والفراخ.

كلما كبرت كانت أمي تتخلص من الشك والارتياب وكل ألسنة السوء التي كانت تلاحقها وتصيبها مباشرة في شرفها. وجهي راح يبحث عن وجه أبي، صورته المعلقة، وهو يحمل بندقيَّة طويلَة، يضعها على كتفه اليسرى. وجهي مستطيل مثل قرطاس السكر، أو مثل مكعب السكر. بروز في الحاجبين. عيناي تختبئان بالداخل، وعظمة ذقني مرتفعة، بارزة للأمام، إلَّا أن كتفيَّ تمردتا قليلًا على كتفَيْ أبي؛ ربما لأنه لم تكن له فرصة في حملي على كتفيه العريضتين مثل بلاطة فرن بلدي. قالت لي أمي: اليوم نزعت عني عاري، أنت مخلِّصي. أنت الآن أصبحت تشبه أباك تمامًا. صرت صورته ومثاله. كانت تدور بي على كل البيوت. لم أكن أقدر على التمييز، هل

تدور من أجل إعلان براءتها أم من أجل جمع كسر الخبز؟ كانت النساء تقول أني شبه المرحوم تمامًا. أمي ترتاح وتتنهد، ولا أفهم ماذا كانت تريد بالضبط. أرسلتني إلى مقهى لكي أعمل به. عملت بالمقهى حتى تزوَّج صاحب المقهى من أمي، فتركت المقهى ولملمت هدومي، ووضعتها في شنطة زرقاء، ورميت نفسي في أول قطار، إلى مصر. أحسست بأن مهمتي في هذه المدينة التي حدَّدها الله لي قد تمت على أكمل وجه. هل كانت مهمتي تزويج أمي؟ ها هي قد وجدت رجلًا آخر ولم تعد في حاجةٍ لي. حضرتُ عرس أمي كأني أنظر إلى لوحة صامتة. كأني أنظر من شرفة عالية على حشد يمر أمامي وأنا أدخن وأقول في نفسي ما الذي يحدث هناك؟ رأيت أبي يتحرر من حيطان البيت تدريجيًّا، ومن هواء ذاكرةٍ نمت كالفُطْر منذ تسعة عشر عامًا. يأخذ معطفه وجلبابه وبندقيته ويذهب في رحلة صيد بعيدة. سمعته – أو هكذا خيِّل لي –: هل تأتي معي يا ابني؟ تلعثمت وارتبكت ولم أنطق بكلمة، ولكن يبدو أني صنعت علامة رفض، فتبخَّرت صورته من أمامي. شممت رائحة دخان.

دخلت المحطة، أسأل عن القطار الذي يذهب إلى مصر. رأيت اسم ملوي معلق على لافتة. لم أكن أعرف من قبل أن المدينة معلقة

على لافتة. هنا ملوي، وفي هذا الاتجاه، توجد هناك مدن أخرى، ولافتات أخرى. سأذهب في نهاية المطاف إلى لافتةٍ ما. سأجلس أسفل هذه اللافتة وأبكي مدينتي التي تآكلت مثل لافتة مهملة. مثل رغيف وفأر في رحلة. قال لي الموظف: "التذكرة بخمسة جنيه، وتيجي الساعه سبعة، وتوقف على الرصيف دا، القطر اللي بيروح بحري"؛ وضحك في وجهي كأنه ينظر إلى أبله. لم أفهم، هل أنا أبله لأني ذاهب إلى مصر، أم لأني أسأل عن القطار أم لأن أمي في أول يوم عرسها؟ أخذت التذكرة، ووضعتها في جيب البنطلون، وذهبت إلى مقهى المحطة. طلبت شايًا وأخرجت علبة سجائر. لا أذكر متى اعتدتُ التدخين. كأني وَجدت نفسي فجأةً مدخنًا. أمي رأت أن الأمر طبيعي وقالت: "أبوك كان بيحب الدخان والحشيش كمان". علبة سجائر في جيب بنطالي، وعلبة كبريت عليها رسومات غير واضحة، ربما تكون برجًا أو مسلَّة أو عمودًا حجريًّا قديمًا.. لا أستطيع أن أحدِّدَ ما الذي كنت أراه. وهناك علبة كبريت أخرى رأيت عليها حمامة زرقاء تحاول الطيران بعيدًا. لها جناحان أزرقان، وبطنها أبيض، ومنقارها مرسوم بالأسود مثل لون ظفرها. لم أرَ حمامة بحياتي تشبهها، ولكني أحسها حقيقيَّة جدًّا، وموجودَّة بمكان

ما. بدأت أسمع صوت القطار. كانت القطارات تمر قبلًا ولا ألتفت إلى أين تذهب ولا من أين تأتي، فقط أنتظر مرورها لكي أواصل طريقي. لم يراودني حلم السفر مرَّة واحدًة. كنت أحسب أني مقيم هنا بجانب أمي، وأني سأتزوج هنا، وأنجب أطفالًا هنا. كانت كل أحلامي ترتبط بهذه النهارات المشمسة، والعفر الذي تخلفه البهائم والسيارات القديمة والبشر، وبهذه الجلابيب التي تمر بالمدينة وتذهب في نهاية المساء، بالأسواق التي تقام في مواعيدها الثابتة وأمكنتها المحددة؛ سوق للجواميس وسوق للجمال وللحمير وسوق للماعز والخراف وسوق للدجاج وللبط وللإوز وللحمام وسوق للسمن وللعسل وللجبن... إلخ. كانت أحلامي ترتبط بيوم سيأتي ويصبح لي مقهى وزوجة. كنت سأعلق صورة أبي في جانب من المقهى، وفي الجانب الأخر صورتي. دخلت القطار ووجدت مكانًا بجوار الشباك، فوضعت الشنطة بين قدميَّ، ورحت أترقب تحرك القطار، وأنظر بحذر إلى الناس من حولي. لأول مرة أجد نفسي محشورًا بين غرباء. عندما بدأ القطار في التحرك راح قلبي يخفق بشدة وكادت الدموع تنهمر من عيني. لم أظن يومًا بأني بمثل هذه الهشاشة، وأني سأبكي ملوي لحظة. أحسست بأن هناك فجوة تحدث في رأسي. هناك من

يقف فوقي ويحفِر حفرته في رأسي. توقف القطار بعد نصف ساعة تقريبًا وقرأت لافتة تشبه لافتة ملوي، مكتوب عليها أبو قرقاص، وعندها صعد مجموعة من الأطفال يبيعون لنا قصبًا، فاشتريت عودًا، ورحت أمصه بمتعة بالغة، وكان مسكَّرًا لدرجةٍ لا يمكن وصفها. لم أحس بحرية تدخل إلى صدري مثلما أحس بها في هذه اللحظة. يبدو أني رحت أتخلص تدريجيًّا من رائحة ملوي ومن اللافتة. كل المدن لها نفس اللافتة. لا فرق بين مدينة وأخرى إلا بما تمنحك إياه، وأبو قرقاص منحتني قصبًا لذيذًا ومسكَّرًا. قرأت لافتة أخرى "المنيا" لا رائحة لها، فقط أعرفها من البطاقة الشخصية؛ فأنا من مواليد مركز ملوي محافظة المنيا، هنا فقط يأتي اسم المنيا، لكني لا أحد لي هنا أعرفه. لم يصعد أحد يبيعنا شيئًا، فقط هواء ساخن يمر بالشبابيك. في مغاغة صعدت مجموعة تبيعنا قتة، فاشتريت واحدة، وطلبت من البائع رغيفًا وبيضة وجبنًا، فأعطاني ما أردت، بالإضافة إلى شريحةٍ من الطماطم، وكانت هذه هي المرة الأولي التي آكل فيها طعامًا غريبًا، طعامًا مسافرًا، طعامًا لم تُعدّه أمي لي، ولا تأتيني منه رائحة ملوي الحارة والمتربة. بدأت الشمس تختفي عن معدن القطار،

وفجأةً أضيئت لمبات القطار، فانقبضت روحي قليلًا، وأنا أنظر إلى الليل الذي يأتي من الخارج.

-رايح فين يابَلَدِينا؟ انت؟

- بتكلمني انا؟

- أيوه مش سامع؟

- لا سامعك، رايح مصر.

- تعمل ايه في مصر؟

- أشتغل.

- تعرف حدّ هناك؟

- ابن خالي.

- فين في مصر؟

- في المنيب.

- وهتشتغل ايه؟

- أي حاجة.

- دي أول مرة تروح فيها مصر؟

- أول مرة.

مـر الكومسـاري، ونظـر إلى التـذكرة وقـال: "إنـت راكـب مـن ملوي؟".

- آه.

- بالسلامة.

- الله يسلمك.

بدأت العتمة تثقل تدريجيًّا، وأضواء تلمع في الخارج على الطريق الزراعي. هي المرة الأولي التي أرى فيها الصور والأشياء تتلاحق في سرعة نحو الخلف، وأنا أسير إلى الأمام، فكرت بأنه يمكن للقطار أن يقع في حفرة أو يصطدم بقطار آخر. العتمة تأتي بأفكار مزعجة. رأيت صورة أبي المعلقة في غرفتي تنزلق من إطارها، تميل قليلًا جهة الشمال، وكان أبي يتكئ على جذعه ويريد أن يقول لي شيئًا، ربما يريد أن يغادر، أن يأتي معي. لم أفكر في أبي منذ زمن بعيد. فلماذا تأتيني صورته الآن؟ هل غادر أبي غرفته بعد خروجي؟ هههههههه ضحكت. كأن أبي لا يعرف أنه ميت، وأن امرأته صارت لغيره، وأنا

صرت بعيدًا. كلما ابتعد القطار ابتعد عني، كأني أترك صورتي أنا أيضًا وأبحث عن شيءٍ آخر. لا أحد يأتيني من الخلف. سأصنع سدًّا بيني وبين ما هو ورائي.

- إنت عارف هتنزل فين؟

-أه هانزل الجيزة.

- وبعدين؟

- معي العنوان(٥ حارة محمد كامل من شارع الجمهورية المنيب).

....

....

- طيب احنا خلاص داخلين على الجيزة.

- طيب ماشي.

نزلت محطة الجيزة، وكانت الساعة الثانية عشرة تمامًا. اليوم يوم جديد، وأنا هنا في أرض غريبة وجديدة. سأذهب إلى المنيب. أوقفني شرطي، ونظر لي بشكل وقح، وقال لي:

- رايح على فين؟

- المنيب.
- تعمل ايه؟
- عند قريب لي.
- طيب بطاقتك وافتح شنطتك.

هي المرة الأولي التي يطلب مني بطاقة أو يوقفني شرطي. كنت أعرف كل رجال الشرطة بملوي. كنت أقدِّم الشاي لهم جميعًا في قسم الشرطة. كانوا يعرفونني ويعطونني أكثر من حساب المشروبات.

- طيب عايزك تختفي خالص ماشوفش وشك تاني هنا.
- حاضر.

ضحك ضحكة عالية كأنه يلاعب كلبًا، ورمى بطاقتي في وجهي، وتركني لكي يوقف آخرين. خرجت من المحطة وقلبي يرتعب، وأحسست بالعرق يتخلل كل جسدي فأسرعت نحو ميكروباص يأخذني إلى المنيب. تتبعت عنواني جيدًا حتى وقفت على رأس بيتٍ مكوَّمٍ على نفسه، فسألت الجيران. قالوا لي:

- البيت اتهد والراجل راح لبيت أهل مراته في ساقية مكي.

- طيب حد يعرف عنوانه؟

- لا

- طيب هم بخير؟

- الحمد لله كلهم بخير.

رجعت إلى الوراء. نفس الطريق قطعته مرة أخرى. أخذت ميكروباص من الشارع الرئيسي إلى محطة الجيزة مرة أخرى ولا أعرف هذه المرة إلى أين سأذهب ولا أين سأقضي ليلتي الأولى. مددت يدي إلى جيبي، فوجدت ورقة فئة العشرين جنيهًا في مكانها، فدخلتْ في نفسي طمأنينةٌ باهتةٌ كنت في حاجة اليها في أول أيام غربتي. ما زلت قابضًا على الورقة الخضراء التي تنام في جيب بنطالي، كأنها تميمة أو تعويذة، وأنظر إلى الناس الذين يعبرون حولي كأني أنظر في صفحة النيل، عميقة، مضطربة، قلقة، ضجرة، ثقيلة. المياة ثقيلة التي تمر بي ما عدا هواءً صيفيًّا لذيذًا يلاطم وجهي. فوقي كوبري وأمامي كوبري وعلي يساري كوبري وعلي يميني مقاهٍ وباعة وفاكهة وأطفال في ملابس رثة وفتيات يَبِعن مناديلَ ورقيَّة وعربات كارو أفقر مما رأيت في ملوي. نزعت يدي من على الورقة الخضراء،

وفتحت جيبًا في الشنطة التي أحملها على كتفي، فوجدتُ بعض العملات المعدنية، وأوراقًا من فئة الخمسين قرشًا والجنيه والربع جنيه. أحصيتها، فوجدتها أربعة جنيهات ونصف الجنيه، ففزت باطمئنان مضاعف، وخاصة أن علبة السجائر لا زالت تعدني بالمزيد. عند انتهاء الكوبري، وجدت نفسي أسفل كوبري آخر، فاتخذت الطريق الذي يصعد إلى الشمال في محاذاة النيل. لا أعرف أين سيقودني هذا الطريق، ولكني أشعر بالاطمئنان وأنا في محاذاة هذا النهر. السيارات هنا أكثر سرعة، وعدد المشاة بدأ في التناقص. أمتار عدة أقطعها وحدي دون أن ألتقي بأحد، وهي الأمتار الأكثر سعادة بالنسبة لي. هي الغربة، أستطيع أن أعرف ملامحها الآن. خوف التقاء الغرباء. الوحدة هي لحظات الطمأنينة الوحيدة. لا فرح ولا حزن فقط خوف مشوب بالترقب. حذر مبالغ فيه. سيارة مسرعة تخلف وراءها رعبًا وغبارًا. وعلامات تضيع منك فجأة في منتصف الطريق. خطوة للخلف ونظرة مرتابة لوجهٍ يمر وسؤال مرتبك، هل أنتَ من هنا؟ أريد أن أذهب إلى... هل تعرف أين ...؟ تلعثم وارتباك يحلان في مفاصل البدن والروح. تجاوزت لافتة "قسم شرطة مصر القديمة"، وبعدها دخلت ميدانًا يحدُّهُ سورٌ قديمٌ عالٍ. أسرعت

نحو السور، ومشيت أسفله. عندئذ أحسست بالنعاس. الساعة الآن تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. خطواتي صارت واهنة، وبدأ القلق ينفرد بي وحيدًا، فرحت أتلمَّس مسامات السور الحجري كأني أحاول قراءة ما ينتظرني. هنا مرَّ غرباء كثيرون مثلي وربما كانوا أكثر ضعفًا وفقرًا ووحدة. تذكرت أمي. لا أعرف لماذا أصبحت الآن أكثر تفهمًا لزواجها وأقل غضبًا. لقد عاشت وحدها بدون رجل عشرين عامًا، هي أجمل سنِي عمرِها. ألم أكن أنا (راجلها) كما كانت تقول لي؟ لا كنت شبه رجل، أو أذكِّرها برجل. كنت شبحًا صغيرًا يسكن معها. تجهِّزه السنوات لكي يجوب شوارع غريبة. الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل. أمي الآن لم تعد أمي. دخلت من فتحة في السور. دخلت مكانًا خربًا مظلمًا وانتظرت. شممت رائحة روث وخراء وبول. يد الله كانت حاضرة. تبولت في ركنٍ أكثر إظلامًا. ووضعت الشنطة تحت رأسي واستسلمت للنوم. يدٌ تدفعني. أحسست وخزًا في جنبي. رأيت صحراء في حلم. لم أدخل صحراء من قبل، ولكني شممت رائحة رمل ناعم يتدفق من جسدي، وحوافر قطعان من الأيائل تنوس في الرمل. عاصفة صفراء في فمي. وخزة ثانية بقوة مضاعفة قادتني إلى نبع وهمي. أشرب مثل

جعـران... يـا الله... وخـزة ثالثـة. أي شـوكة في جسـدي تنمـو. استيقظت لأجده جالسًا عند قدمي ويبتسم. أراد أن يقول شيئًا، لم أسمع جيدًا.

-ماتخافش. إنت ليه نايم هنا؟

- ما.. ما.. مالقتش مكان تاني.

-إنت منين؟

-من ملوي

- ملوي دي بعيدة أوي. إسمك ايه؟

-إس.. سماعيل.

- قوم تعالى افطر معي.

بحثت عن فردتي الحذاء. خبأت قدميَّ الباردتين فيهما، وحملت شنطتي مرة أخرى وتبعته. كان يتقدمني بخطوة، ويسير بهدوء شديد، وثقة هشة مثل حكمة العجائز. الحكمة هي العجز. النضج يعني الشيخوخة. الحياة تقصر. الموت صار قريبًا. ساعة الحصاد تدنو. لم يلتفت لي إلا مرة واحدة عندما دلف نحو حارةٍ صغيرةٍ مفتوحةٍ على

ساحة، تتوزع على حدودها البيوت الصغيرة والمطاعم بشكلٍ أشبه بدائرة. في وسط الدائرة أطفال يلعبون وبعض الماعز والحمير والبط والفراخ وعربات كارو ومعالف وجرادل مياه بلاستيك وألومونيوم. نساء على السطوح القريبة يُطعمن الدجاج والحمام. هواء صيفي ناعم يداعب الدائرة. توقف أمام مطعم، وحصل على حصته من الفول والطعمية والخبز. أحسست بأنه يحصل على إفطاره بشكل مجاني. لم يطلب شيئًا. توقف فقط، فوجد في يده ما أراده. التقط حُزمَّة من الجرجير من بائعة بجوار المطعم، ونفض فروعها من الماء. تناثرت القطرات حوله. بعضها حط على وجهي. قطرات غامضة محملة برائحة الجرجير الطازج. عند عتبة البيت، توقف قليلًا كأنه يفكر في شيء سري، ثم التفت إليَّ وقال: "تعالي يا اسماعيل". تخطى العتبة، وأنا أتبعه. أحسست بثقل الشنطة، فألقيتُ بها إلى الجدار. جلست على مفرش ملون. خطوط مستطيلة زاهية؛ أحمر وأبيض، أحمر وأزرق وأبيض، أحمر وأزرق، أحمر وأبيض أزرق، أسود، أزرق وأبيض، أزرق وأبيض وأحمر، أزرق وأحمر، أسود، ....

وضع طبلية خشبية أمامي. ملوي تأتي على هيئة طبلية. أمي تقف بعيدًا على باب غرفة أخرى. لم تكن أمي. أبعدتُ الصورة عن رأسي. قال لي:"بنتي".

-إيه؟

-دي بنتي، الحبشية. بيسموها الحبشية، لكن دا مش اسمها. دا اسماعيل وهيشتغل معي.

ابتسمت الحبشية، ووضعتْ يدها على شفتيها. الشفة العليا مشقوقة مثل أرنب. لم أقل له إني سأعمل معه، ولم أطلب منه عملًا. لماذا يقرر هذا الرجل أمري بكل هذه الثقة؟ رائحة الطعمية أثارتني. تطلعت إلى شَفَة الحبشية. الخبز طازج. تربعت أمام الطبلية. كنت على وشك أن أستدعي أمي. تلعثمت وسقط النداء، الاسم. شهقة في حنجرتي. سقط ندائي مني مثل عملة قديمة باهتة، لا وزن لها. لا يليق برجل أن يبكي في حضور غرباء ومائدة إفطار وفستان الحبشية الأخضر. أمي بيضاء ولها رائحة رغيف العجين تحت الشمس، والحبشية حبشية، سوداء مثل مهرة، وعرقها له رائحة الصمغ. جاءت الحبشية بصينية الشاي، ووضعتها أمامنا على

الطبلية. انحنت قليلًا عندما وضعت الصينية، فتأكدتُ من رائحة الصمغ التي تنبعث من الداخل. عرفت أن هناك شجرةَ صمغٍ تنمو وسط برزخ.

-هات شنطتك وتعالى وراي.

قادني إلى حوش صغير خلف البيت. كانت هناك عربة كارو أمام الحوش، وحمار بالداخل، وغرفة ضيقة يقابلها حمام معلَّقة عليه ستارة بلاستيك معتمة، وصوت مياه، ورائحة علف وبول وروث.

-إنت هتنام بالليل هنا وبالنهار هتشتغل معي على العربية.

دخلت الغرفة، وبدلت ملابسي، وفي لحظةٍ خرجتُ له، وكنت جاهزًا للعمل.

-هاطلع معاك النهارده علشان تتعرف على الزبائن ويعرفوك ولو حد سألك بعد كده تقوله إنك بتشتغل معي. آه نسيت.. أنا اسمي إبراهيم. اتفقنا؟

-اتفقنا.

انهمكت في العمل مثل الحمار. لا أعرف كم من الوقت مضي بي وأنا هنا مقيد ببيت الحبشية وأبيها. الجميع هنا يقولون: "ظهر ولد لإبراهيم فجأة". كنت بالفعل بمثابة الابن الذي جاء في شيخوخة، فكبر بشكل مضاعف. رأيت ملامحي تتغير لكي تلائم وضعي الجديد. ها أنا جالس في مقدمة العربة أقودها كل يوم إلى خرابات جديدة لكي ألقي بها الركام وبقايا المنازل المهدمة وفي الخلف يجلس أبي مطمئنًّا في مناجاته اليومية. والحبشية تطوف المحلات يوميًّا بمبخرتها لكي تطرد الشياطين وتجلب الحظ والرزق للتجار الصغار. عندما ينتهي يومي، أدخل الحوش مع الحمار، وأقيده إلى معلفه، وأتمدد أنا على فرش بغرفة رطبة، مثبت، بالداخل، فوق بابها الخشبي المتآكل مصباح كهربائي يكفي لكي أبصر الصراصير والخنافس والجرذان التي تأتي لزيارتي كل ليلة. في ظهيرة يوم من أيام بشنس القاسي، تحركت أمعائي بداخلي وتلوَّت مثل ثعبان، وتدفق مني عرقٌ غزير، والتهبت قدماي، وكنت أحس بمؤخرتي كأن بها سيخًا مُحمًّى، أو كأنها فُتحةُ فرن صار جاهزًا للخبيز، فنزلت عن العربة مهتاجًا، ودخلتُ إلى الحمام المقابل لغرفتي، وخلعت سروالي، وتقرفصت على فتحة الحمام، فدوى صوتُ حمم تخرج من شرجي،

ورحت في أنين موجع وتنهد مرير وأنا أنظر إلى أسفلي كي أرى ما يحدث لى. البراز ماء مغلي يندفع بلا توقف، وعندما رفعت وجهي إلى فوق لكي أزفر، رأيتها في ركن الحمام عارية. يد على ثديها ويد على فرجها وشفتها السفلى تتدلى بابتسامةٍ كأنها فاكهة جاهزة للقطف. جسدها بني غامق، يلمع بوهج تحت الماء والصابون. حلمة الثدي حبة بُنٍّ سوداء. بطن من نحاس. قدمان من رخام. رفعتُ سروالي، وخرجت من الحمام مسرعًا نحو العربة، وأنا لا أعرف من أين ينبعث الوهج هذه المرة. صار جسدي كله متوهجًا مثل ظهيرة بشنس. كأني اكتشفت فجأة الحيوان الرابض بين وَركَيَّ. أسرعت بالحمار إلى النيل، وأنا لا أحس الشمس التي تضرب رأسي، ولكني أحترق من شمسٍ نبتت في جلدي. عندما وصلت النيل، وضعت بعض العلف للحمار، ووثقت قدميه بحبل، وقفزت فوق سور النيل، وخلعت ملابسي، ما عدا الفانلة واللباس، ورميت نفسي إلى النيل. كانت المياه الثقيلة تلسعني وهي تدخل جلدي. أغطس وأصعد، أغطس وأصعد وعيناي مفتوحتان على الحبشية. شربت مياهًا كثيرة. كانت مثل الخمر. بطني امتلأ. تبولت أكثر من مرة في النيل. لا أعرف الوقت الذي مر بي وأنا مدفونٌ في المياه. صعدت

إلى الشاطئ، ولبست ملابسي، ونمت تحت شجرة. في طريق العودة، كانت الشمس تختفي هناك وراء النيل. جلبت وجبة فراخ ساخنة، ودخلت الحوش أسحب الحمار ورائي. أكلت بهدوء وبلذة ورحت في خدر، ويدي تلمس حيواني، فيتمدد ببطء بين يدي ويكبر وينتفخ. أشعر بخدر لذيذ في جسدي. ينتصب حيواني بقوة، أداعبه من جديد. أستمر في مداعبته. غابة كاملة تظهر أمامي، وأشم رائحة الصمغ. تصعد يدي وتهبط على جسد هذا الحيوان، وفجأة يتدفق سائل ساخن له ملمس زلال البيض ورائحته مثل النشا. وجدت جسدي يهدأ، وتأخذني دوخة ناعمة، وأذهب إلى النوم. قبيل الفجر، شممت رائحة الصمغ، ورائحة الحناء. كانت الحبشية تدخل في جواري وتقبلني برفق بالغ. قلت لها بتلعثم حار:أبوك..ي.؟ قالت: ذهب إلى صلاة الفجر ولن يعود إلا مع بزوغ الشمس. تذكرت أول لقاء به، عندما وجدني نائمًا في خرابة. وضعت يدي على ظهرها، تلوَّت مثل موجةٍ محملةٍ بطمي. مدت يدها نحو قضيبي، فكان جاهزًا ومهيئًا لمداعبتها. يدها خشنة ومبللة بعرق ممزوج برائحة اللبان. قبلت شفتها المشقوقة، وجذبتها إلى فمي فتأوهت. كررت جذب شفتها ولعقتها، فتعالت موجتها تجاهي

وغمرتني. انزلقت تحتي، وراحت تداعب قضيبي بلسانها، فصرخت من شدة اللذة، فوضعتْ يدها على فمي. أخذت يدها في فمي، ورحت أمتص أصابعها. فجأة، أدخلت قضيبي في فمها، لم أحتمل المرارة والسكر المذابين. رفعتها فوقي عاليًا، وتركتها تنزل ببطء على جسدي. جلست على ركبتي، وراحت تداعب قضيبي، تارة بيديها وتارة أخرى بفمها. صار لعبتها، وصارت هي تعذيبي وتلذذي. راحت تسرع في مصي وتلهث، فأخذتُ ثديها، ورحت أرضعها مثل كلب. رأيتها تلمس فرجها، وتشده بأصابعها، وأشارت لي أن أقلدها، فمددت يدي إلى فرجها، وتلمست أعشابه، وضعت فمي بداخله، كان مالحًا. نهق الحمار بصوت ملتاع، وتبول بجوارنا....

" حكي أن امرأة كان لها زوج جمال له حمار يحمل عليه، وكانت الزوجة تبغض زوجها الجمال لصغر ذكره وقصر شهوته وقلة عمله، وكان ذميمًا، وكانت هي عظيمة الخلقة مقعورة الفرج لا يعجبها آدمي، ولا تعبأ ببشر ولا بجماعة. وكانت كل ليلة تخرج لعلف لذلك الحمار، وتبطأ على زوجها، فيقول لها ما الذي أبطأك فتقول له: جلست إزاء الحمار حتى علف لأني وجدته تعبان. بقيت على هذا الحال مدة من الزمان، وزوجها لا يشك فيها بسوء؛ لأنه يأتي تعبان

فيتعشى وينام ويترك لها الحمار لتعلفه. وكانت هذه المرأة لعنها الله متولعة بذلك الحمار، وإذا رأت وقت العلف تخرج إليه وتشد بردعته على ظهرها، وتشد الحزام عليها، ثم تأخذ شيئًا من بوله وزبله وتمرس بعضه في بعض ثم تدهن به رأس فرجها قبالته، فيأتي الحمار ويشم فرجها من خلفها، فيظن الحمار أنها حمارة فيرتمي عليها، فإذا رأته قد ارتمى عليها، تحبس أيره في فرجها، وتجعل رأسه في باب فرجها، وتوسع له حتى يدخل شيئًا فشيئًا إلى أن يدخل كله، فتأتي لها شهوتها، فوجدت راحتها مع ذلك الحمار مدة من الزمان. فلما كان في بعض الليالي، نام زوجها ثم انتبه من نومه، ووقع في مراده الجماع. وكان مراده أن ينكحها، فلم يجدها، فقام خفية، وأتى إلى الحمار، فوجده يمشي ويجيء، فقال لها: ما هذا يا فلانة. فخرجت من تحته بالعلف، وقالت: قبح الله من لم يشفق على حماره. فقال لها: وكيف ذلك؟ قالت: أبي أن يعلف، فعلمت أنه تعبان، فرميت يدي على ظهره فتقوس، فقلت في نفسي: هل يحس ثقلًا أم لا؟ فأخذت البردعة وحمولتها على ظهري لكي أجربه. فحملته فإذا هو أثقل من

أي شيء فعلمت أنه معذور. فإذا أردت أن يسلم لك الحمار فارفق به في الحال" .[1]

في الصباح، عندما التقيت بأبي قلت له فورًا: لقد خدمتك سنوات عديدة. أريد الحبشية.

لم يصدق الرجل كلامي، وسألني إن كنت متأكدًا من رغبتي. هل أنت جاد في طلبك؟ نعم. أريد ابنتك. أريد الحبشية.

فقال لي: هي لك.

[1] الشيخ سيدي محمد النفزاوى، كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر.

لا أحد عرف الحبشية مثلما عرفتها. لم ير أحد ما رأيته، ولم يسمع ما سمعته. الروح تسمع وتشم وتلمس وتتذوق. روحي كانت ضائعة فوجدتها. كانت العتمة تأتي مثل موجة محملة بالطمي، وكنت أنا مثل مركب تتلاعب به الأمواج. كنت وحيدًا عندما صعدت الموجة، ولما نزلت رأيت كل شيء بوضوح. رأيت العالم يهرم ويذبل مثل عشب. كل الماضي الذي تركته خلفي صار غير قابل للتذكر. فقدت ذراعي على طين جسدها. على سرتها نمت مثل يمامة، وحلمت بغابة وبمطر وبعطور. الحبشية تعرف كيف تكون امرأة كاملة، وتعرف أين تكمن مملكتها. عندما فتحت رجليها، كأني دلفت إلى كهف بدائي تزينه رسومات وأشباح وشياطين كثيرة. شياطين كنت أبحث عنها؛ لذا عانقتها بشدة. كنت ملكًا مجوسيًّا، وكنت شامانيًّا. فردتْ شعرها البني فوق جسدي، وداعبتْ خُصيتي، وندَّت عنها ابتسامة حارقة، وتهجت اسمي لأول مرة.

قال لي أبي: الآن تغير الوضع. عليك أن تنتقل إلى بيتك الجديد. ستسكن مع الحبشية في الغرفة، وسوف أنام أنا في الصالة. لا تهتم بأمري. يكفي أنك ستهتم بأمر ابنتي من بعدي. أنت راحل يا إسماعيل. لم يرزقني الله الولد فكنت أنت ولدي. أتذكر جيدًا اليوم الذي وجدتك فيه. كنت مثل وحش صغير يهرب من أعداء خفيين. تمنيتك لي ولدًا، واستجاب لي الله أخيرًا. الحبشية مجنونة يا إسماعيل. يجب أن تكون حاسمًا معها وحذرًا. ابنتي وأنا أعرفها أكثر منك. لا تصدق ما تقوله لك، ولا تكذبها؛ فهي دائما تروي قصصًا غريبة ومخيفة. أوقات كثيرة أحسُّ بأنها مسكونة بالجن، أعوذ بالله. أشارت مرة إلى منزل وصرخت: النار. لم يصدقها أحد ولكن رأينا فجأة النار تشتعل في البيت وتقضي عليه. لن أحكي لك كثيرًا، ستعرفها بنفسك. أومأت برأسي. قلت إن أراد الله لي وتحققت معرفتها. الحبشية الآن توزع بخورها على البقالات والمحلات الصغيرة. هو اليوم الأخير لها في العمل. لن تسرح بعد بالبخور وباللبان. ستترك الشياطين بالدكاكين تفعل ما بوسعها فعله.

ذهبت الحبشية إلى الموسكي، وابتاعت لنفسها فساتين ملونة كثيرة، وعطورًا، وحناء، وكحلًا، وماءَ ورد، وفساتين نوم، وكلوتات، وسوتيانات، وحذاءً جلديًّا خفيفًا، وأحضرت ملاءاتٍ كثيرةً ومفارشَ وأغطية, وفي طريق عودتها، رأتني جالسًا على العربة، فنظرت إلى ما تحمله، فابتسمت ابتسامة حلوة. كنت أريد أن أتبعها، لكن صوت صديق لي منعني عن ذلك. ذهبت بدوري إلى سوق الإمام لكي نجهز غرفة نوم لي وللحبشية. أقام أصدقائي حفلة عرس لي. سهروا حتى مطلع الفجر، ثم تفرقوا إلى أماكن أعرفها جيدًا. دخلت غرفة الحبشية. نظرت إلى الصالة. لم أجد أبي. فهمت أنه تركنا وحدنا هذه الليلة. وجدت الحبشية بثوب عرسها تنتظرني على حافة السرير النحاسي المزين بشراشف بيضاء. لن أحكي لك ما حدث لي مع الحبشية هذه الليلة، ولكني سأترك لك المجال لكي تتخيل كيف يكون رجل وحده مع لبؤة؟ نجوت من الموت أكثر من مرة، وتمنيت الموت أكثر من المرات التي نجوت فيها. كان خبزنا ممزوجًا بالصراخ وبالعرق وبالمني وبالدم.

اليوم ذهبت أبحث عن إسماعيل. هذا صوتي أنا. أنا من يكتب سيرته. هل تعرفونني؟ هل مر صوتي من هنا؟ هل رأيتم صورتي في المرايا؟ هل سمع أحدكم بي؟ لكي أميز صوته عن صوتي، سألجأ إلى الحيلة التي صارت معهودة في الكتابة، بأن أغير خط الكتابة؛ فأنا في نهاية الأمر أريد لصوتي أن يخرج، مثلما أريد لرائحتي أن تملأ المكان. كنت أبحث عن جثة فوجدت إسماعيل. ذهبت إلى عمله في الأوتيل. لم أجده واقفاً كعادته على البوابة. وجدت شخصاً آخر. سألته عن إسماعيل. قال لي أنه لم يأتِ الليلة. ذهبت إلى بيته. التقيت بهانم زوجته الحبشية. خرجت لي، وعلى شفتها المشقوقة ابتسامة بلهاء، وفي عينيها، يقبع لون أسود بهيج. سألتها عن إسماعيل. قالت لي: "طلع من الصبح، ومش عارفه راح فين". فكرت لحظة أن أدخل معها، إلى جحرها، وأنزع ملابسها، نفس الملابس التي وصفها لي إسماعيل. أردت أن أرى سوادها، وأرشف ريقها، وألمس جمراتها المشتعلة. أحسست بعطش شديد. حلقي بدأ يجف. لساني يبحث عن ثديها. رأيتها توسع ابتسامتها نصف سنتيمتر جهة اليمين، ونصفاً آخر نحو الشمال، حتى اتسع فمها عن ابتسامة مشقوقة نصفين مثل ثمرة تفاح. ازاحت إيشارب أخضر عن شعرها، فبدا لي كأنه سلسلة عذابات متسخة. كنت اقترب أكثر، وأنا في حالة تشبه الاغماء. رائحة بالداخل تصيبك بالدوار. كأنك في

غرفة عمليات. كحل عينيها بدأ يتحرك، مما يجعل عينيها تتلألآن بدمع أسود، بحبات رصاص. رحت أنظر إليها كأني أنظر في بحيرة رمادية، آسنة، وسمك صغير يقفز بلون فضي في وجهي. قالت: "هو انت تعرفه منين يا أستاذ؟". قلت: أنا – صوتها مر وناعم – أنا اعرفه من الأوتيل.

قالت: طيب اتفضل، هو زمانه جاي.

عندما قالت جملتها هذه، لا أعرف لماذا شممت رائحة عفن تنبعث من فمها. لم يكن عفنًا عاديًّا، بل رائحة سمك نافق.

قلت: لا. هادوّر عليه.

قالت (وهي تذهب للداخل بلامبالاة شديدة، ببرودة مخيفة): خلاص روح له سوق الجمعة، تعرفه، في الإمام.

تخلصت من حلقي الجاف، ومن لساني المنتصب في حلقي كأنه فتاحة علب معدنية. دفعت خطواتي نحو الطريق إلى الإمام. مَن هذه المرأة التي أرادت أن تأكلني جثة حية. من أنا الذي أراد أن يدخل إلى جب من لحم وعظام. أراد أن يغوص في بحيرة أسماك وثعابين. هل كنت أحدق في هاوية؟ أين هذه المرأة الآن؟ هل رأيت حقًّا امرأة إسماعيل. لقد رأيته ممددًا بالداخل. سمعته يسعل، وينفث رائحة دخان. صدره كان يرتفع مثل موجة مريضة. قدماه عاريتان، تطلان من تحت

غطاء أبيض خفيف. فأسان يتقاطعان على حافة سرير. لماذا لم يخرج هو لي، وأرسل امرأته لملاقاتي، وتنكر لي؟ هل كان يمتحن ولائي له؟ هل عليَّ أن أكون مخلصًا لجثة؟ أي شيطان تسرب إلى دمي؟ لعنة الله، لعنة الشيطان، على إسماعيل، وعلى هانم، وعلى الأسماك النافقة التي تصحو في حلمي، وتتسحب أسفل رأسي مثل ديدان، أو طعم سنانير، لزجة، بنية اللون، رمادية، لزقة، ناعمة، كانت تجلس في كفي في وداعة تامة، كأنها تطلب صدقة، أو سريرًا للنوم، أو بقعة ضوء، أو تريدني أن التهمها. عندما كنت طفلًا، في ظني أني في يوم ما كنت طفلًا، أو سأصير يومًا ما طفلًا، أجمع هذه الديدان في كيس ممتلئ بالطين. أذهب إلى المناطق التي تفوح منها رائحة مياه آسنة، في القنوات، وحول برك المياه، أقلب الطين، وألتقطها برفق، كأني ألمس جلد فراشة، وأضعها في كيس، وأرش ماء. كنت أريد أن ألتهمها، أفتحها، وأرفقها بالسنارة، فيبرز سائل لونه أبدي، أحمر، أسود، أبيض، تخطئ السنارة طريقها، فتتشبث بإصبعي، نقطة دم تمتزج بألوان الديدان، يمكن أن أعجن هذه الألوان، وأذهب بها إلى فرن، وانظر كيف ينضج لون الأبدية. أذهب إلى النهر محملًا بكيس الديدان، وبسنارة بدائية، صنعتها لنفسي، أرمي بها في المجرى، وأنتظر ظهور السمك، ارتعاشات الخيط. يرتعش الخيط، وتغوص البكرة. أشد سنارتي نحوي، تطلع فارغة، بلا ديدان وبلا حذاء.

سنارة عارية كانت تحلم برأس سمكة. يمكنني اليوم، بعد أن كبرت أن أفتش عن ديداني في جسد هانم. رأيت ألوانها تلمع. شممت رائحة طين آسن. مياه قديمة. رائحة طفولتي تصعد من هذا الجسد. لعنت في سري إسماعيل وزوجته واللحظة التي حرفتني إليهما. سأذهب إلى أي بار بوسط البلد. أريد أن أذهب إلى بار. غير أني وجدتني على طرف كوبري التونسي، أبحث عن إسماعيل في السوق. كان واقفا هناك في المدخل، يلهو ببعض الأسلاك المعدنية، يلفها حول بعضها، ويعيد فكها، كأنه يجرب مشنقة. أعرف أنه رآني، وأشاح بوجهه بعيدًا، لكي يترك لي فرصة للبحث.

- كيف عرفت بمكاني؟ (قال إسماعيل).

- مررت على بيتك. (قلت).

ضحك، وراح يلوي شفتيه، كأنه يمضغ كلامًا ما أو هاجسًا.

- هي التي قالت لك أني هنا؟ (قال إسماعيل).

رددت بالإيجاب.

- قال لي: هل أعجبتك؟

أحسست بغضب وبضحك يصعدان من فجوةٍ ما بجسدي، قلت: على أي حال هي زوجتك.

- لا تغضب؛ فهي امرأة عاهرة، تشم رائحة فرائسها من بعد، وقد شمت رائحتك عندما كنت أحكي لها عنك. لكني أعرف أنك خائب، أو بالأحرى تحبني أكثر من رغبتك، وأكثر من دعوتها.

- قلت: لا أكثر، ولا أقل.

- تعال، نذهب إلى اصحابي. أريدك أن تعرفهم.

مشى أمامي، ولا يزال ممسكًا بالأسلاك البيضاء، يلفها حول معصمه، ويعود، فيجعلها تدور حول خصره، وبعد، يطوحها في الهواء، كأنه يلاعب ثعبانًا، ويهز كتفيه وهو يترقب الأسلاك التي تطير فوق رأسه. بقع من الوسخ تنتشر على جلبابه الأزرق، مثل بقع الحبر التي تفيض عن حاجة الكتابة. نادرًا ما رأيته خارج زي الدراسة الرسمي. كان الحذاء الأسود يلمع، كأن هذا السواد يعمل كحقل مغناطيسي للأسلاك البيضاء التي تطير في الهواء أو تلتف حول الخصر.

تبدلت أحوال أبي كثيرًا بعد أن تزوجت من الحبشية. لم يعد يسألني عن حال الشغل ولا عن الزبائن ولا عدد النقلات ولا عن المال. كأنه تخلص دفعة واحدة من مشاغل هذه الدنيا. صارت لقاءاتنا قليلة ولكنها أكثر حميمية ودفئًا. يأتي عندما تطبخ الحبشية، يأكل ويشرب معنا الشاي وينظر خلسة إلى بطن الحبشية وينصرف، كأنه مدعو إلى وجبة. يأتي وهو يحمل لنا بعض الفاكهة وبعض عيدان البخور. صار يتردد كثيرًا على الجامع ويقضي معظم الوقت هناك، ما بين الصلوات وبين تنظيف الجامع وتهويته أو مجالسة أصدقاء شيخوخته. صار مشغولًا بنظافته وبطهارته أكثر من أي وقت مضى. تخلص من الملابس الداكنة التي كانت تناسب العمل، وبدلها بملابس بيضاء. يحمل القرآن تحت إبطه، ويتلو بعض قصار السور التي يحفظها، وبعض الأدعية؛ **"اللهُم نَقِّ قُلوبَنا مِن الخَطَايا كَمَا يُنقَّى الثَّوب الأبيض مِن الدَّنس"، "اللهم طهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء"، "اللهم ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين"، "اللهم إِني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكلِّ اسم هو لك سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا**

من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همي".
عندما يجد من يجيد القراءة، يفتح المصحف ويقول له اقرأ لي الجزء كذا وكذا، وهو يردد خلفه ببطء كأنه يؤدي صلاة سرية. الحبشية بالداخل تجهز العشاء، ورائحة ملوخية تعبق المكان، وأنا على المصطبة أدخن الجوزة بعد نهاية يوم عمل. جاء أبي، وجلس بجانبي كأنه فقط يستريح، وقال لي: "أنا هاطلع السنة دي أزور قبر حبيبنا النبي". كنت على وشك الضحك، ولكني قلت له: إزاي؟ إحنا معانا فلوس للمشوار دا؟

قال:"أنا طالع يا اسمعيل، ربك قادر وهيدبّرها". ومشى نحو الجامع، ونظراتي تتبعه في شفقة وتعجب. فكّرت هل عليَّ أن أدبر مصاريف رحلة الحج لأبي؟ هو يريدها بشدة، ويحلم بها. مرت أيام وموسم الحج يقترب، وأبي لم يكرر لي رغبته مرة أخرى، ولم يطلب مني أية مساعدة! وأنا لم أجرؤ على التحدث إليه في هذا الأمر لأني لا أمتلك المال الكافي. فكرت كثيرًا في طلب المال من أصدقائي ولكن لو جمعت أموالهم جميعًا فلن تكفي لزيارة حج واحدة. اختفى أبي مع ذهاب الحجاج وعاد مع عودتهم. جاءنا الخبر بأن إبراهيم أبا

الحبشية كُتِبتْ له حجة هذا العام، وهو الآن في طريقه إلى البيت. لا أحد يعلم كيف ذهب؟ لا أحد يعلم كيف عاد؟ خرجت أنا والحبشية ننتظر ظهوره، وكان الوقت مغيبًا. رأيناه يتقدم نحونا بملابس بيضاء أكثر تألقًا، وشال أبيض يغطي رأسه وينسدل على كتفيه بنزاهة الصالحين. أخذني في حِضنه وقال لي: "دعيت لك هناك يا اسمعيل. هيكون نسلك عظيم". ضمني أكثر إلى حِضنه، وأحسست بأنه سيبكي. رفعت وجهي نحوه وقلت: "هتبكي ليه بقى يا حج؟". قال وهو يمسك بكتفي: "من حب الله يا اسمعيل". لم أفهم ماذا يريد أن يقول، ولكني قلت سريعًا: "هاعمل ليلة ما اتعملتش لأكبر حج". قال لي: "اللي تشوفه يا ابني". لأول مرة أسمع كلمة "يا ابني" بهذه الرقة والاستسلام، كأنه أراد أن يقول لي "أنت ابني يا اسمعيل". في اليوم التالي، كان صديق لي نقاش خارج البيت بالجير ويرسم الكعبة والناس تطوف حولها ويرسم مأذنة وطيور كثيرة تطوف فوق الكعبة والمأذنة، وكتب بخط متعرج ومتقطع، (**هنا منزل الحاج إبراهيم الذي حج إلى البيت الحرام هذا العام الموافق.. من شهر ذي الحجة لسنة.... هجرية**). وأسفل الكعبة كتب بخط أكثر تقطعًا وإهمالًا، (**حج مبرور وذنب مغفور**). كيف تعلمت

القراءة؟ عندما كنت صغيرًا، وكنت أعيش مع أمي، كنت أجمع كسر الخبز من البيوت، هناك، عبر هذه الرحلات الطويلة تعلمت الحروف من أطفال البيوت التي كنا نجمع الخبز منها. عندما أطرق باب بيت لكي أسأل أهله عن بقايا الخبز، إذا رأيت أطفال البيت يكتبون أو يقرؤون، كنت أنضم إليهم بعض الوقت وأنسى أمر الخبز. حفظت شكل الحروف، وحاولت القراءة، ولكني لم أنجح في الكتابة. فقط أكتب اسمي وبعض الكلمات. جمعت اللغة حرفًا حرفًا من البيوت مثلما كنت أجمع كسر الخبز. عندما رأى أبي طلاء البيت والرسومات والكتابة ابتسم وقال: "حلو الطير اللي راسمه صاحبك دا". في الليل جاء كل أصدقاء أبي وأصدقائي وصديقات الحبشية، وراح إمام المسجد يتلو القرآن الكريم بصوت فرح، وبجواره يجلس أبي في حلته البيضاء، وابتسامة خاشعة لا تفارقه. وزعنا الحلوى والشربات، وجهزنا مائدة لأكثر المقربين إلينا. بعدها انصرف الجميع وبقيت أنا مع العمال، نجمع الكراسي ونسندها بجوار حائط البيت، ونخلع لمبات الإضاءة ونحفظها داخل البيت ومعها الميكرفون والأسلاك. انصرف العمال على أن يعودوا في الصباح لكي ننقل الفراشة إلى المحل. دخلت البيت، فوجدت أبي يجلس على الكنبة

وبجواره الحبشية، قلت له وأنا أضحك: "مبسوط يا حج". قال لي: "نِعَم ربنا عظيمة يا اسمعيل. أنا مبسوط وفرحان. انت اصبر يا اسمعيل. ربنا هيرزقك من البنت دي". ضحكت الحبشية، وقبلت يد أبيها وهي تتدلل عليه كأنها عادت طفلة من جديد. تركت أبي لكي يستريح، ودخلنا غرفتنا أنا والحبشية. دخلت في حِضني وهي تواصل تدللها وتنظر إليَّ في دهشة، وأنا أهز رأسي بنفس الدهشة. سألتني فجأة:"هو مين اللي بره دا يا اسمعيل؟". قلت لها بهدوء وأنا أدخل في النوم: "أبوك يا حبشية".

طرق خفيف على الباب بعد الفجر. قمت لأفتح، فوجدت أربعة رجال يلبسون الأبيض. تطلعت إليهم. لم ألتقِ بهم من قبل. قال أولهم: "عايزين الشيخ إبراهيم".

قلت: "نايم".

نفس الشخص:"عارفين". دخلوا بهدوء، ووقفوا حول أبي. كل رجل في جانبٍ من الكنبة. أحدهم فتح صرَّة كانت بيده وأخرج ثوبًا أبيض. تطلع لي ثالثهم، ولم يقل لي شيئًا، وأنا لم أفهم. عندما بدؤوا ينزعون ثيابَ أبي، أدركت ما حدث.

قال رابعهم: "عايزين جردل مَيّه".

ذهبت لكي أحضر جردل الماء، وأنا أفكر بالحبشية، ماذا لو استيقظت؟ قال لي أولهم: "ماتقلقش مش هتصحى دلوقت". كنت أفكر في الحبشية في سري. مجرد فكرة مرَّتْ سريعًا وأنا أذهب لكي أحضر الماء. كيف سمع صوتي؟ أحضرت الماء وسلمته لمن سألني. كانت يدي قريبة من يده وهو يحمل عني سطل الماء. تطلعت إليهم، ورأيت بأنهم يشبهون بعضهم بعضًا كثيرًا؛ الوجه، اللباس، شعر رؤوسهم، السن، الطول، الحجم. وضعوا أبي في الطشت. أبي

صار يشبههم كثيرًا وكأنه خامسهم. غسلوه برفق وألبسوه القماش الأبيض وهم يتمتمون كأنهم في همس، في مناجاة، في فرح."اللهم اجعله كافورًا"، "اللهم نقِّهِ من الدنس...."، اللهم، اللهم، اللهم، .... صوت ترتيل وتسبيح، همهمة، أياديهم تتحرك باتزان على إيقاع الهمهمة. وضعوه على السرير، وغطوه بثوب أصفر.

قال لي أولهم: "لا تتأخر في الدفن".

خرجوا بسرعة كأنهم يطيرون، ولم أجد لهم أثرًا بالخارج. وجدت الحبشية خلفي، فقلت لها:"الشيخ إبراهيم مشي تاني".

قالت: طيب روح لشيخ الجامع عشان يقول للناس".

كان موت أبي يشبه لحظة اختطاف. تحدث الجميع عن معجزة موت أبي.

لِمَ اخترتني للكتابة؟

لأني وجدتك ضائعًا ومستغرقًا. شممت رائحة البحر في جسدك. تنام موجة تحت إبطك، وفي سرتك أعشابٌ سامة. عندما رأيتك، قلت في سري، أنت من أبحث عنه. صدقت قارئة الطالع: "هناك شخصٌ يبحث عنك. لا يعرفك. لا يمشي على قدمين. له أجنحة مثل فرخ عقرب. عندما يحط على كتفيك سوف تنجب من الحبشية". يومها ضحكت وسخرت من قارئة الطالع، ربما خفت وقتئذ. كلامها كان جارحًا وشريرًا. أخذت العربة، وذهبت إلى النهر. رأيت وجهي في الماء منعكسًا، وحولي أسماك صغيرة، تأتي وتنقر وجهي، تداعبني مثل أطفال الحي، هل يمكن لي أن أنجب سمكة صغيرة. ضحكت، قهقهت، عندما تخيلت سمكة صغيرة، ذات زعانف رقيقة، وخيشوم أبيض، تخرج من فَرْج الحبشية.

أنت أنقذتني يا إسماعيل

أنا العابر حول إسماعيل، ومدوِّن سيرته. كنت كإلهٍ شديد الحرص على نظافتي وبقائي طاهرًا، وبلا أي غبار أو رائحة. كنت ألتهم روثي، آكل خرائي، لئلَّا يتسرب شيءٌ مني إلى الطرقات. أدفع رائحتي، وأجعلها على مسافة غير مرئية من جسدي. لا أتكلم. أكتم الهواء في حلقي، وأضغط على حنجرتي بشكل دقيق لكي تخرج الكلمات مثل غمغمة، أو غرغرة، أو تأتاة، أو......

لم أكن فقط مهووسًا بطهارتي، بل كنت أريد أن أرى العالم أيضًا نظيفًا.

منذ سنواتٍ، لا أعرف عددها، ولكني الآن بلغتُ الأربعين، كنت أحمل الجثث من منطقتي إلى النيل. كنت أخبئها بين الركام، وأرمي بها إلى النهر بعد ربطها بحجر. ها أنا اليوم أحمل الجثث في الاتجاه المعاكس، من النيل إلى بيتي. من النيل إلى رحم امرأتي. ماذا لو رآني شرطي؟ ماذا أقول له؟ كيف أدافع عن جثة رضيع نافقة، قطعة لحم صغيرة منتفخة، أخبئها في صدري، تحت ملابسي، بين الصديري وجلدي؟ هل أدعي أن الطفل طفلي، أن قطعة اللحم هذه من صنعي، من خَلقي. هل أقول بأني عملت كل هذه السنين في هذه المدينة من أجل إنتاج قطعة لحم نافقة؟ لا. لن يقترب مني شرطي في هذه اللحظة، لن يقترب. ستبعده الرائحة إلى أقصى مدى ممكن. الرائحة العفنة ستجعله يفقد توازنه، ويلوذ بالهرب. لن يجرؤ شرطي، مهما كانت شجاعته، على أن يقترب من رجل تفوح منه رائحة عفن. سيقتله العفن. سيجد نفسه لا أمام رجل بل أمام جثة. سيصاب الشرطي بلوثة لو اقترب. عندما فكرت في ذلك، انفرجت أساريري قليلًا، ورحت أداعب الطفل، الذي صار فجأة حاميًا لي. خطواتي بدت متزنة، وتنفسي هادئ، رغم البلل الذي أصاب ملابسي. تذكرت أني نسيت أنشف الجثة. ولكن كيف لي أن

أنشف جثة نافقة؟ إنها قطعة ماء منتفخة. ماء رمادي، أسود. لحم محشو بطين. طين محشو بلحم. فقاعة انتفخت وامتلأت بالماء وبالطين وبالعظام وبالطحالب وبأسماك صغيرة. سوف أدفع هذه الفقاعة الضخمة، التي تزن ثلاثة كيلو جرامات، إلى رحم امرأتي. سأنتظر المدة الكافية لكي تنضَج، لكي تنتفخ عن طفل حقيقي. سأنتظر تسعة شهور. سأنتظر تسع سنوات، تسعة عقود. سأنتظر.

في الجمعة التي تأتي قبل حلول ذكرى موت الشيخ إبراهيم، وبعد صلاة الظهر، اجتمع كل العربجية بإسماعيل وقالوا له:"الجمعة اللي جايه ذكرى الشيخ إبراهيم ولازم نعمل ليلة كبيرة". فما كان من إسماعيل إلا أن يوافقهم: "اللي انتوا عايزينه نعمله، وتعيشوا وتفتكروا". في هذا اليوم، جاء كل العربجية ومعهم عرباتهم التي تحمل النساء والأطفال وأكوامًا من البطيخ. وبعد العشاء، بدأ الاحتفال بذكرى موت الشيخ إبراهيم. قراءة القرآن، تواشيح، أناشيد ذكر. الناس في فرح عظيم، حتى الحمير شبعت وارتوت من قشر البطيخ. لا أعرف لماذا تم الربط بين هذه الذكرى وبين حضور البطيخ كملمح أساسي لهذه الذكرى. ومن هذا اليوم، صار العربجية هم أول من يحملون البطيخ للناس في الشوارع، وهم أول من يأكلونه. بعد صلاة الفجر ناموا في أماكنهم؛ أطفال، ونساء، ورجال، وحمير، ومشردين، وكلاب، وقطط، ...

عند شروق الشمس، كانت مياه النيل تتراجع بشكل لم يسبق له مثيل في أي عام، فظهرت كل الجماجم التي تم رميها في النيل. غابة جماجم كاملة تظهر في النيل. جماجم متنوعة الحجم؛ أطفال، ونساء، ورجال وحيوانات. بعض الجماجم تبدو كأنها درنات،

والبعض صارت منزلًا للأسماك، والبعض الآخر بدت على هيئة كهوف صغيرة. تجمعت حشود من البشر على الكورنيش جاءت لتنظر هذه المعجزة الجيولوجية الهائلة، حتى السلطة جاءت لكي تتأكد من أن قتلاها قتلوا بالفعل، ولن يقوم أحد لكي يطلب الثأر. راحت السلطة تبحث عمن يحمل هذه الآثام العظيمة. أرادت أن تجد صانع هذه الجماجم كلها، فانتقلت إلى بيت إسماعيل وزوجته الحبشية، بعد أن قيل لهم بأن العربجية هم الذين يأتون إلى هذه المنطقة ومعهم ركام البيوت. اقتربت الشرطة من بيت إسماعيل، وفجأة تحول البيت إلى نار مستعرة، ولم تقدر أن تقترب أكثر، وظلت في حالها مشدوهة، حتى انتهت النيران من عملها، بعدها لم تجد للبيت أي أثر، ولا للزريبة، ولا للعربة، ولا للحمار. كان المكان نظيفًا ومعدًّا لكي يكون ملعبًا أو مسجدًا آخر، أو بيتًا جديدًا. في هذا الوقت كنت مع إسماعيل على فوق صخرة من المقطم، وكانت المدينة كلها تحتنا لا تكف عن الصراخ والحركة. كنا نسمع صوت الحبشية، وهي تتوجع وتئن مثل بهيمة في المخاض. وكان هذا أول مولود لإسماعيل من الحبشية.

قــال لي إسماعيــل: "لازم تشــوفلي أوراق عشــان أطلّــع بطاقــة جديدة".

قلت له:"هتكون لك بطاقة جديدة".

أخذ نفسًا عميقًا، وشرب آخر جرعة من زجاجة البيرة، وبقوة ثور رمى بالزجاجة صوب المدينة. رحت أتابع الزجاجة الفارغة حتى استقرت هناك.

القسم الثاني

نهايات سعيدة

"لقد عرف كيركجارد كيف يموت؛ فهو قد أفرغ نفسه تمامًا من لغته".

جيمس ب. كارس

James p. Carse

أحب/ك

كانت الملعقة البيضاء التي ورثتها عن جدتي (كانت تقول لي سأموت وأترك لك هذه الملعقة. لا تنظر لي هكذا؛ فهي تمنحك رؤيتين بدلًا من رؤية واحدة. أعرف أن جدتي تركت ما تبقى من ذاكرتها ينطفئ مثل عود ثقاب، ولم تعد تميز بيني وبين أبي، ولا تقدر أن تفرق بين ملعقة ومرآة. ولكني للحظة قلت ربما تقرأ جدتي في كتاب آخر غير الكتب المقدسة التي بحوزتنا فهي لذلك تهتم بالملاعق والشراشف والستائر والمناديل، وتعطي وقتها كله، كأنها في صلاة، للأكواب والأواني الزجاجية. هي تكره الفخار كرهها للرياح وهي محملة بأتربة. كانت تعتقد أن الله زجاج كبير). تطل من شرفة جارتي عندما كنت أمر خلسة. انتظرت حتى تغدو الشمس أقل وضوحًا مما هي عليه الآن. أقول لليل اقترب أيها الذئب. تمدد بجانبي واسمع هذا الغناء علَّنا ندرك الصباح معا. هي تمر الآن أمام النافذة، وأنت معلق مثل ملعقة. لا تتنفس. لا تخرج هذا الصوت الذي يشبه الرياح وهي محملة بأتربة. (ماتت اليوم جدتي وتركت فرشها معلقًا لكي يتشمَّس. أمي ترى أن فرشها مليء بالبراغيث وربما القمل أيضًا. أمي تقول إن جدتك تعملها على نفسها مثل الأطفال، وأنا

أضحك وأنتظر أن تغلق أمي عينيها لكي أرى الغمازتين وهما تضيئان وجهها. أمي تمتلك غمازتين مثل هلالين حول فمها. جدتي كانت معجزة عندما تمسك بمفتاحها وتطرق به على أواني الزجاج، تنبعث موسيقى قريبة إلى المياه عندما تندلق على زجاج ملون. أنا وأمي نبتهج عندما نسمع تراتيل الجدة على أوانيها الزجاجية. قلت لجارتي وهي معلقة مثل ملعقة: يومي يمر أمامي، وأنا لا أشبع من النظر إليك. نعم أحبك، لكن وماذا بعد. هل أنتظر هنا وحدي مثل ذئب. أحبك، ها أنا أقولها صراحة وخلسة. أحبك، يعني أريد يدك على جبهتي لكي تهدأ سنوات تعبي. أحبك، يعني لا أريد خروجك من جسدي. أريد أو لا أريد أنت شرفتي وأنا معلق منذ موت جدتي. قالت لي أمي عند موت الجدة: لقد حملتْها ريحٌ إلى شرفة، وعندما تنام ستراها تطل مثل حمامة من شرفة. فهمت أن جدتي ستصعد لي من وجهَي المعلقة. ستضحك أو تبكي أو تقول لي: أنا جدتك أيها الولد الذئب.

كنت أقول منذ قليل أحبك أيتها المرأة التي حملتني على راحة يدها لكي لا تنزلق رجلي. ومدت لي شرفتها لكي أكبر. أحبك أيتها المرأة البعيدة. المنيا/ فندق آتون/ ٣٠ مارس/آزار/٢٠٠٦. ننام

معًا لكي نستيقظ فلا نرى إلا وجوهنا وهي تنقلب مثل ملعقة. امرأتي أنا هنا أنتظرك مثلما كنت أنتظرك دائمًا معلقًا في شرفة، كأني مسيح معلق على نهر، أو غمازة ضائعة على صفحة وجه. عندما ولدت جدتي أمي، يقول الشهود إنها لم تتوجع أو تتألم مثل النساء عندما تأتيهن لحظة الولادة. قالت فقط أريد أن أتمدد قليلًا لكي ترتاح طفلتي. كانت تحس بأن بطنها يحتفظ بطفلة ماكرة وليس ذكرًا ذئبًا. دخلت غرفتها وانتحت ركنًا بجانب سرير زيجتها، وصرخت نحو زوجها: تعال إنها بنت كما قلت لك. هكذا وضعت جدتي طفلتها الوحيدة التي صارت فيما بعد تعرف بأنها أمي. كبرت أمي مثلما تكبر البنات الوحيدات، ممتلئة، بيضاء، خجلة.

أنا البعيد جئت أطالب بدمي المهدر منذ أن حزمت أمتعتك وغادرت قيلولتي المطمئنة على سطح داري. أنا البعيد البعيد أقف مثل خشبة في وجهك، مثل حفرة في طريقك. لا تعاويذ قسيس ولا حيل عجوز يمكنها أن تزعزعني قيد أنملة عن مطاردتك. حاولت أن تهشني كما تهش دجاجاتها أو شياطين الظهيرة. لست دجاجتك أيتها المرأة البعيدة مثلي، ولست شيطان ظهيرتك لكي تبعديني ببسملة باهتة. أنا البعيد جئتك

كأني لم آتيك من قبل. لست نبيًّا، ولست ملاكًا بالطبع. أنا قتيل، وما بين فخذيك بقايا دمي. أحبك. أحبك كأني لم أحب من قبل.

كان ياما كان

في الليل

أكون وحيدًا

ومنطفئًا

منزويًا على نفسي

مثل امرأة تخشى المرايا

أو اللصوص

أكتب لنفسي

قصصًا

وحواديت

لا أحد يقرؤها غيري

في الليل

أكون مستيقظًا

مثل نمر

أو نجم

أحرس قطعان حزني

ويأسي

وأنتظر غروب الوقت

في الليل

حيث لا أحد

غير المرايا والريح

أجلس إلى نفسي

وأحكي

كان ياما كان

....

....

وفي آخر الحزن

أندس..

وأبكي...

أنا ميتٌ هنا منذ زمن. أنا هنا ميتٌ ولا أحد يعرف. الناس تمر هنا وهناك ينظرون إلى الجيفة الملقاة على الطريق ويمضون غير مبالين بكارثة بيئية في طريقها للحدوث. أنا الحدث الذي سيأتي ويعلن أن الساعة اقتربت. أنا الكارثة المحققة التي تكنس كل أوساخ الأرض. أنا المسيح والشيطان، أنا العذراء والمومس، أنا يهوذا ويوحنا، أنا القبلة والشوكة.

ككككككككككككككككككككككككككككككككككـك
ككككككككككككككككككككككككككككككككككـك
كككككك

ككككككككككككككككككككككككككككككككككـك
ككككككككككككككككككككككككككككككككككـك
كككة

كنت أسبح في مياهي وحدي محملًا بتشنجات عائلية، ورثتها عن أمي التي كانت تمرُّ بي كأنها تمرُّ على تَمْرٍ ناعم. تدوسني من أجل حلاوة كعبيها. تقول لي: أنت ولد رائع عليك أن تكبر سريعًا من أجلي. كن رجلًا سريعًا. خذ لك امرأة من بنات الغرباء. لا تلمس امرأة من عشيرتك. عشيرتك فاسدة. لن تنجب لك إلا العجزة والبلهاء. الغرباء سيختلطون بدمك وتنجب لنا نسلًا جديدًا.

لا أعلم إن كنت أستجيب الآن لرغبات أمي وأحلامها أم تجاوزت حدودي مع الغرباء. ربما لم تعنِ أن أذهب بعيدًا إلى هذا الحد. ربما كانت تقصد وحسب من خارج العائلة، أو من

خارج القرية، لكن أن يذهب بي شططي إلى خارج الحدود، الإثنية، والدينية،...إلخ. إلى نهاية المغايرة التي من أجلها تشتعل حروبٌ في كل البقاع. ها إني أذهب بتربتي إلى نهاية الآخرية، وهي تذهب تجاهي إلى آخرها. هي محبتي الباقية الملتهبة مثل نارٍ مخبَّأة لي.

أمي كانت تقول لي أني فاسد وأحمل دمًا فاسدًا مثل كل العائلة. مهما حاولت في تطهيرك. أنت مثل الخنزير كلما حممتك ونظفتك تذهب إلى أقرب وحل وتتمرغ فيه. كيف حمل بطني بك؟ يا ليتني لم أنجبك أو انفجر بطني عنك.

كان جدي يشبه كثيرًا ديوجين غير أنه بدل المصباح بخرق ولفافات وأكواب فارغة، ولم يكن يبحث قط عن الحقيقة؛ فهو لا يهتم بشأنها كثيرًا، دائما يقول: إن كانت هناك حقيقة في العالم فعليها أن تكشف عن نفسها. هل علينا أن نطاردها من مخبأ إلى آخر؟ ربما لم توجد من الأصل. ديوجين في رأيه رجل

أخرق. هو جدير أن يحمل هذه الخرق. لِمَ تحمل هذه الخرق أيها الرجل الخرف؟ هكذا يسأله أبي. وأيضا مطاردوه من الصبية. يقول بتواضع جم وعيناه تسبحان في بقعة ماء: من أجل قذارة العالم. يقول قسيس القرية: أيها الرجل الأبله. لقد حمل المسيح كل هذه القذارة عنا. ينظر إليه بدهشة بالغة. يفكر في الرد، وهو الرجل المؤمن مثل إيمان المعيز بحشائش مختبئة خلف صخرة. الإيمان ثعلب يتغذى على مخاوفنا وآمالنا. عندما نفقد الخوف ونقتل الأمل سيهجرنا هذا الثعلب. سيجد نفسه معزولًا، أحيل إلى التقاعد. أغسطينوس يعرف هذه الموعظة، ويطلق عليها القمة. كان يريد القمة لذلك نزل إلى أوساخ الجزائر وصار قديسها وشيطانها. فقدت الجزائر بإيمان أغسطينوس فيلسوفًا كان من شأنه أن يصعد بالقرون الوسطى إلى قمتها. جدي تنتابه حالة من الهذيان. حدَّق في وجه القسيس وقال له: ربما أنا مسيح آخر. وقام مهرولًا إلى الفضاء تلحق به مجموعة من الصبية يرشقونه بالخرف والحجارة. أمي وحدها كانت تشفق على هذا العجوز الأخرق وتنظر إليه كما تنظر إلى طفل. تقدم له الطعام مثل كلبٍ بعيدٍ عن حظيرتنا.

أمي بيضاء وممتلئة؛ لذلك أعجبت أبي كثيرًا وصار يطارد والدها لكي يحصل على وعد بالزواج بها. كان جدي يستغل هذا الوضع جيدًا فيأخذه إلى الحقل ويأمره بالحرث مثل بقرة. يقول أبي لكي أتزوج بأمك حرثت لجدك كل هذه الأفدنة، وزرعتها بالبرسيم مرات وبالذرة مرات أخرى. أمك نَسِيَتْ كل هذا وصارت تعاملني كأني وجدتها في الطريق. ورث أبي عن جدي خرفه ولكنه لم يرث هذيانه بتلوث العالم. كان يلاحق جدي مثل الصبية ويتهمه بالتخريف والتبديد. وكان جدي بدوره يتهم أبي بالغباء وبأنه خائب. عندما كنت أسمع جدي يقول هذا الكلام لأبي كنت أضحك ولكني لم أكذبه. لم أفهم وقتها لماذا يتهم أبي بالغباء وبالخيبة. أبي كان يبدو ناجحًا إلى حد بعيد؛ فتجارته تمضي بشكل جيد، وجهده موزع على مجالات عمله بحرص. يعرف متى يذهب إلى حقله ومتى يجمع بضاعته ويذهب إلى تسويقها، بالإضافة إلى أنه يمتلك حسًّا فكاهيًّا إلى حد بعيد. كنت فقط أراه قاسيًا يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ذكر جاموس صغير له قضيب جدي ماعز. وفي ذات اللحظة أرى أمي أشبه بفرخة بيضاء منتفخة، تتلوَّن عيناها بالأزرق أحيانًا كلما ترقرقت

فيهما الدموع، ولها ضحكة رائقة مثل فرخ يمام. وعند تزاوجهما لا بد من إنجاب معيز بعقول فراخ أو فراخ بعقول معيز. ولكن يبدو أن أبي كان يضاجع أمي بعد أن التهم طِحالَ كلبٍ فجئت أنا مماثلًا لحالة الذئب الأرعن[٢].

---

[٢] انتظر سأريك شيئًا ما. انظر هذه الفقاعة. هي تبدو مثل فقاعة، ولكنها ليست كذلك، إنها أمي. هل تراها الآن، أتراها بوضوح؟ ها هي تمشي منتفخة، بطيئة؛ فهي حُبلى بي الآن. انظر على مهل. فلتكن صبورًا على المشهد. سوف تتخلَّص مني حالًا.

انظر، هل ترى ذاك العنكبوت الجبلي الذي يلتصق بسقف الغرفة؟ لا تنظر إلى الأشكال التي صنعتها الأبخرة والدخان. حَدِّقْ جيدًا في تلك الزاوية من السقف. هذا هو أبي. هو يلتف مثل إسوارة على معصمي. هل ترى هذه الأطراف التي تنسحب وتظهر، تنكمش وتتمدد، في لزوجة وبطء؟ هل ترى الزوائد الكثيرة عن حاجة عنكبوت عادي؟ إنها عموده الفقاري. من هذا العمود جئت أنا. من لقاء بعيد بين عنكبوت جبلي وفقاعة. من هذا اللقاء، جاء إلى العالم هذا الزغب الأسود الذي تراه. كبر الزغب وصار مثل سوسنة في نشيد الأنشاد.

تمهَّل قليلًا. دعني أقدِّم لك باقي أفراد العائلة. هل ترى هذه الملعقة، هذه المغرفة الخشبية التي تدور في الهواء؟ هذه ليست ملعقة تمامًا، وليست مغرفة حقيقية، إنها القابلة، التي جاءت في السادسة صباحًا، في السابع والعشرين من شهر سبتمبر، لكي تلتقط هذا الزغب. ولدت مثل رَتق في ثوب يظهر بعد شد وجذب. كان ثوب أمي هذه الليلة منتفخًا ومعلقًا بمسمار في الباب. تمزق الثوب، فانزلقت. تملكتها حالة من الذعر وسقطت مغشيًّا عليها، لكن الباب انفتح، وكنت تحت عقب الباب أصرخ. لم ينتبه أحد لوجودي رغم صراخي. ربما لأني رأيت ملاكًا في الجهة الأخرى ينفخ في بوق، أو لأني أصرخ بصوتٍ خافتٍ، فلم يسمعني إلا أنا. عندما رجعت أمي من غيبوبتها، وأرادت أن تستردَّ فستانها، بحثت عني، وكان أنفها الوسيلة الضرورية لكي تهتدي لي. مدت يدها تحت عقب الباب وسحبتني، مثل دودة، مثل يرقة. كان وجهي متغضنًا وقذرًا، فلحستني بلسانها مثل أنثى الماعز الجبلي.

معجزة الحمار المعلَّق على نخلة

شهرة جدِّي كمطبِّبٍ للحمير واسعة. القرية تعرف أنه يجرب أدويته ومخترعاته العجيبة على الحمير. كان جدِّي أول من أراه عمليًّا يمارس التجارب العلمية على الحيوانات. كان يقضي يومه في الغيط وهو يجمع نباتات معينة ويضعها في زجاجات وأحيانًا يجففها في الشمس بعد أن يفرد تحتها بعض الخرق وأوراق الصحف المتطايرة. زجاجة للبن، وزجاجة لتراب فرن الخبيز، زجاجة للميكروكروم، زجاجة للصبغة، وبعض الخيطان والحبال وسعف نخيل. كان جدي يمتلك حمارة بيضاء عرجاء، ممتلئة وهادئة، ويبدو أنها كانت تفهم جدي جيدًا لدرجة أنها كانت تتبع تعليماته كتلميذة نجيبة. ربما كانت تثق في قدرته كمطبِّب. كانت تقف في المكان الذي يحدده لها وتأكل ما يقدمه لها برغم أنه في مرات كثيرة كان يقدم لها أعشابًا مُرة. كلما رأيت جدي يمتطي هذه الحمارة العرجاء ويدخل بها القرية لا أستطيع أن أمنع نفسي عن الضحك، فكان فوقها يهتز كأنه يركب جملًا أو نعامًة عرجاء. ملابسه قديمة مهلهلة، وجلابيبه يرتديها فوق بعضها، فلا يمكنك أن تعرف أية جلابية يرتديها اليوم. لا فرق بين الشتاء والصيف. كان في منتهى الحرص على أن يحتفظ بملابسه

فوق جسده كاملة. عندما تتسخ أول جلابية على جسده من الخارج يقلعها ويرميها لأمي لكي تغسلها له. تراه بهذا المنظر الجليل كأنه صورة هزلية من الفاتحين القدامى. كان يمتطي الحمارة بدون سَرج أو قالب وتسمى في لغتنا "مرشحة"، وهي تُصنع من الخيش وقش الأرز، وكان هناك من يقوم بهذه الصناعة. ولأن جدي نسيج وحده فهو لا يتعامل مع هذه المصنوعات. يضع تحته بعض الخرق، ويجلس على كَفَل الحمارة، فيقودها كأنه يتفقد أشياءه المكنونة في جحر لا يعلمه سواه. كانت خطوات الحمارة تستفز كلاب القرية فتعوي خلفها وكأنها تحاول كشف هُوية هذا الحيوان الغريب. هذا العواء كان يدفع الحمارة للهرولة مما يجعل جدي متأرجحًا فوقها بشكلٍ غريبٍ، فيبدو مثل عَودة محارب قديم. أحيانا تستجيب الحمارة للتطبيب فتقترب إلى حالتها الطبيعية، وأحيانا أخرى تتدهور حالتها فلا يتمكن جدي من ركوبها، وهذا وفقًا للأشياء التي كان جدي يجربها على علتها. فجأة وجدنا بطن الحمارة يكبر أو ينتفخ. توقعنا جميعًا بأن الحمارة ستموت، ولكن جدي يعلن بفخر أن الحمارة حامل أو "عُشر". كان يقول كلامه عن حمل الحمارة بزهو وكأنه هو من قام بتلقيحها. لم نهتم كثيرًا بما تحمله الحمارة. بعد مرور

أحد عشر شهرًا، وضعت الحمارة مولودًا ذكرًا، جحشًا مخططًا أبيض في أسود. كان جحشًا جميلًا وبلا عيب، ممتلئًا وصاخبًا، وكان جدي أكثر الناس سعادة وفخرًا بهذا الحيوان، وكان يشكر الله على أنه أخيرًا استجاب لتضرعاته ونظر إلى تعبه مع الحمارة ورزقه بمولود ذكر. وبعد أن أكمل هذا المولود أربعين يومًا، قرر جدي أن ينزل إلى القرية هذه الليلة. وفي الفجر استيقظ قلقًا، وعاد أدراجه إلى الغيط، فوجد الحمارة ملتاعة وتدور حول وحيدها أو بقايا لحم وحيدها الذي نهشته الذئاب ولم تقدر على حمايته. لم يتحمل جدي صدمته في قتل حماره، ولم يغفر لكلاب عائلة النواحل تركها الجحش الصغير في مواجهة قطيع ذئاب. ربما أصابته لوثة أو داهمته رؤيا؛ فأثناء مروري بالحقل، في ظهيرة هذا اليوم، مخترقًا عيدان الذرة الكثيفة والحرارة والعرق، سمعت حقلًا من الزنابير يحوم فوق رأسي، دوائر تحلق فوق رأسي، وأصوات غزوات، ورائحة عفنة تسيطر على المكان، وكلما اقتربت من خوشة النخل، تصاعدت الرائحة ومعها صراخ الزنابير، فرفعت وجهي إلى النخل، فرأيت الجحش على قمة النخلة معلقًا، ورحت أصيح في حقل الذرة كما كان الجزار يصيح في القرية:"كيلو اللحم بمِيَّة وعشرة"، فوَقْتَها كان كيلو اللحم بجنيه

وعشرة قروش. ولما سألت جدي لماذا قام بهذا العمل، قال لي بأنه أقسم بأن كلاب النواحل لا تأكل منه لأنها لم تحرسه كما يجب وتركته وحيدًا للذئاب. وإلي هذا اليوم لم أعرف كيف استطاع جدي أن يصعد إلى أعلي النخلة ويربط بقلبها جحشه القتيل. ولم نفلح في جني بلح تلك النخلات هذا العام. كنا نشم رائحة العفن في أي بلحة نلتقطها.

بيوت القرية واطئة، منخفضة. حيطانها من الطوب اللبن، وأسقفها من جريد النخل أو من البوص. بعض البيوت مطلية بالجير والأخرى بلون أزرق، أكسيد أزرق أو أكسيد أصفر. بعض أعمدة تلغراف تنتصب في الشوارع الرئيسية، كانت تبدو لي كأنها آلهة قديمة، يجب أن نضع عليها ملابسنا ونقدم لها بعض الطعام وندس في شقوق الخشب بعض أوراق التوسل. ثمة جبل يظهر من جهة الشرق[٣] لكي يوقف نمو المقابر والغيطان، وفي الغرب يمر النيل في فتنةٍ لا مبالية. لا نسميه نيلًا بل بحرًا. نناديه بالبحر وهو يستجيب. هو يعرف أنه نيل وبحر ونهر وشق وفجر وليل عميق ثقيل مخيف وهو ورد وغرق وهو جسر وممر وهو إلٰه. كان لا بد لي أن أصنع هذه التعويذة لكي تأخذ الكتابة سيرها، من الجنوب إلى الشمال، من أعلى إلى أسفل؛ فكلما يأتي ذكر النيل لا بد للكتابة وأن تتبلل، وترتعب، وتنخفض وتعلو، وتلهث وتتقطع وتتلوى مثل ثعبان عظيم وقديم، مثل سمكة بلطي تتنفس على شاطئ ملتهب، وعلى من

---

[٣] أتذكر الطريق إلى الجبل. كنا نمر بالبيوت المنخفضة، ثم ندخل المقابر. كانت شجرة نبق في وسط المقابر. نبقها كان برائحة الرمل المعفر بقصص الموتى، ومن ثم نخرج إلى صحراء. نلمح مجرى السيل هناك، فنذهب بمحاذاته، بعد قليل تظهر لنا المغارة، في الأعلى، ندخل إلى الشق، وكنا ننتظر الله هناك.

يكتب أن ينحني لكي تمر مركبة النيل، لكي تعبره المياه، أو تجرفه إلى شاطئ أخضر أو جزيرة ضائعة. في الصباح تصحو البهائم والطيور والناس. تدور أكواب الشاي وحبات الكشك البيضاء، وأحيانًا نرى كرات البيض وهي تسبح في السمن البلدي وتنزلق بخفة في الفم. تأخذ البهائم خطواتها نحو الغيطان بعد حلب اللبن ويتبعها الفلاحون مشيًا أو فوق حميرهم. تحية الصباح في الشارع تُلقَى بكسل وبرائحة نعاس كأنها أفراخ صغيرة أو يرقات يفقس بيضُها على أكمام الجلابيب. كلمات متطايرة حول فطور البهائم وحياة المحاصيل والأطفال. كانت أجمل اللحظات هي لحظة بزوغ القرية من الليل، من النوم، تتثاءب، ثم تنفض نعاسها دفعة واحدة، تبزغ طازجة مثل جاموسة تصعد من النيل، تطرطش حبات الماء في طريقها، وفوق فمها وأنفها، وأيضًا لحظة ذهاب القرية إلى النوم وهي في حراسة نباح الكلاب الأليف. كنت أرى البهائم تمشي نحو الغيطان في مساراتها اليومية المعتادة. هي تعرف الطرق جيدًا، وتعرف مربطها. تجلس تحت شجرتها أو نخلتها التي تعرفها، وعندما تصل إلى هناك، ترفع صوتها، وتطالب بوجبة فطورها. كانت البهائم تمشي بشكل فرادى، كل بهيمة أمام صاحبها، الراكب على حمار خلفها،

أو معلقًا بكلتا يديه إلى عصاه التي يضعها على كتفيه، أو تمشي البهائم بشكل ثنائي، إذا كان صاحبها ميسور الحال ويقدر على شراء رفيقة لها، أو على الأقل دخل في شراكة مع أحد من ميسوري الحال حول جاموسة أخرى. في الطريق كان حوارٌ غير مفهوم يدور بين البهائم، حوار صامت، وأحيانًا عنيف، ففجأة نجد جاموسة قامت على غفلة من صاحبها ونطحت جاموسة أخرى، ربما رفيقتها في المربط، وفي وجبة الإفطار. عندما نصل إلى الغيط، نربط حميرنا، ونذهب إلى إعداد الفطور للبهائم، أو بعضنا يقوم بهذا الواجب، والبعض الآخر يذهب لكي يشغل وابور المياه. هذا الوحش الرابض في بنايته، الذي يأكل الأذرع أو الأصابع مثلما يأكل السولار والزيت. كنت أذهب فورًا إلى الوابور ملتصقًا بعم "جمعة"، ما زلت أذكره، بشرته السمراء، وطوله الفارع، وجلابيته الملطخة بالسولار، وسيجارته اللف. أحببت هذا الرجل؛ فهو بالنسبة لي كان يبدو ساحرًا. كيف يتغلب على هذا الوحش، ويعرف بدقة آلاف المفاتيح، والسيور، والإطارات، ويزيتها، ويمسحها، ويعيد تركيبها من جديد؟ من أين له أن يأمره بأن يسحب المياه من باطن الأرض؟ كانت أول وظيفة لي أن أعد الطينة التي نغلق بها فتحة المياه

الخارجية، التي تشرف مباشرة على حوض أسمنتي، دائري وواسع. نغلق هذه الفتحة، لكي نضغط الهواء بالداخل، وعندما يشتغل الوابور، تندفع هذه الكتلة في وجوهنا، ويتدفق الماء في الحوض، رائقًا، وعذبًا. كانت هذه اللحظة غامرة بالسعادة. من بعدها، نمشي بمحاذاة المياه حتى تصل إلى غيطنا، ونحاول أن نرصد أماكن النوس، أو الفتحات الصغيرة، الضيقة، التي يتسرب منها الماء إلى غيطان أخرى. هذه الطرق السرية التي تأخدها المياه، نسميها النوس، أي مناطق تنوس. ننزل المجرى، ونحرك بطن القدم ببطء، حيث نتوقع مكان النوس، ويا للسعادة الغامرة التي نحصل عليها عندما تتعرف أقدامنا على النوسة الحقيقية، التي تهدر كمية كبيرة من الماء. كنت أحس بالأرض وهي تستقبل المياه، الشقوق تزقزق مثل أفواه عصافير جائعة، ونمل صغير يخرج، يطفو فوق المياه، وبعض العناكب والديدان تعوم على سطح المياه. لقد تم تفكيك هذا الوابور، الذي كنا نمتلك حصة فيه، وتم بيعه، ولذلك بعد أن قامت الحكومة بمد ترع الري في غيطان البلد، وأصبح بمقدور ماكينة صغيرة، يضعها طفل على رأس الغيط أن تسقي غيطه، وغيطانًا مجاورة، ماكينات أشبه باللعب الصغيرة الضالة، والمياه لم تعد عذبة كما كانت، بل

صـارت ملوثـة، ومريضـة، ورائحتهـا كريهـة. كنـت أريـد أن نحـتفظ بالوابور في بنايته، أو نعطيه هدية لصاحبه الحقيقي، والأولى برعايته، عم "جمعة"، ولكن أصحاب الحصص في الوابور كانوا يريدون حقهم نقودًا. وتم التعامل مع هذا الكائن الأسطوري على أنه خردة.[٤]

[٤] كان جدِّي هو أول من رأيت عظامه كاملة. لقد كنت حاضرًا وقت تغسيله، وساعدت في تجهيز القماش الأبيض الذي كفَّنَّاه به. كانت عظام جدي تلمع تحت الماء، وصارت هيئته شبيهة بهيئة نبي صاعد من التوراة. لا أذكر متى ماتت جدتي، ولكنها – على الأرجح – ماتت قبل جدي بسنوات، وبموتها تحرر جدي بشكل كامل، حتى في الموت كان أكثر حريةً وليونةً وبهاءً.

في صباح يوم عاديّ[٥]. الشمس في الأفق ترتكب حماقتها اليومية، والحمار المربوط إلى النخلة هادئ يتخيل أعواد الحشائش ذبابًا فيهشها بمتعة فائقة/ تحوم حول أرنبة أنفه السوداء فيدفعها إلى الحشائش، وينتظرها عند كل لوكة. بعض فتيات يملأن مواعينهن من حنفيتنا المغروسة في الحائط الغربي، هادئات، متنزهات/...

في هذا الصباح العادي، فتحت الباب على نومة أمي. وجدتها ميتة. جثة هامدة بجانب الحائط. وجهها على حاله أثناء نومها ينظر إلى الحائط. قلبتها فلم تنظر إليَّ بل نظرت إلى الداخل، حيث محنتها الرابضة مثل نعجة مريضة.

[٥] لا أعرف ما هو اسم الحشرة التي كنا نلتقطها ونضعها في علب الكبريت الفارغة ونحملها إلى البيت لكي نخبئها في الدقيق وننتظر أن تنمو وتكبر وتصير غزالة. كنا نحلم بغزلان كثيرة تخرج من أجولة الدقيق. في النهار ندفن هذه الحشرات في الدقيق، وفي الليل نذهب إلى النوم وننسى أمرها. هل كنت أحاكي مسيرة هذه الحشرة؟

في هذا الصباح انتحرتْ أمي بهدوء تام وبشكل اعتيادي.[٦]

ملابسي السوداء معلقة في دولاب خشبي كان من قبل دولاب أمي وهدية زواجها. كانت تضع فيه عقود الأرض وصور إخوتها وصورنا. لم أرَ في الدولاب سوى ملابس سوداء؛ جلابيب وشيلان وجوارب سوداء. أين قمصان نومها وأين ملابسها الداخلية؟ هل تخلصت منها في لحظة كره للحياة أم ملابسها الداخلية هي التي أراها أمامي، بعض التنانير الصفراء مثل تنانير زي فتيات المدارس الابتدائية. الحياة هنا باطنها مثل ظاهرها، الداخل هو الخارج. لا تنظر إلى الداخل. لا شيء. انحنيت على التابوت الخشبي، ولثمت شفاهي الجزء المعدني في منتصف التابوت. كان باردًا مثل ماء مثلج. ملائكة يطيرون حول التابوت وهم ممسكون بأبواقهم، في انتظار اللحظة المقررة لكي يعلنوا فتح التابوت وخروج الجثمان...

– الباقية في حياتك.

---

[٦] أسمع صوت أمي: "اطلع فوق على السطح وخلي بالك من الكتاكيت. اوعى الغربان تخطفهم منك". كان صوتها يأتي من وراء أواني الحليب الفخار. أصعد إلى السطح وأنثر فتات الطعام للكتاكيت. من جديدٍ يأتي صوتها: "خلاص دخلهم القفص وانزل بهم تحت". أفعل ما تأمرني به أمي، وأنسل من البيت دون أن تراني وأذهب إلى لعب الكرة بجوار المقابر. كانت الكرة أحيانًا تطير إلى قبر مفتوح، فأنزل إلى العَتَمَة لكي أحضرها وأنا أتعثر في عظام ميتة.

– وحياتك الباقية.

– ربنا يصبرك.

– سعيكم مشكور.

أنظر إلى هذا الحجر الواقف فوق المقبرة.[٧] أمي تنام الآن هنا بجوار بجوار أخويها. من سيلحق بها أولًا؟ كنت أريد أن أنحني على قبرها وأنام. كنت أريد تقبيلها. هي كانت تريد أن تقبلني. أسمع صوتها من الداخل يئن، يدعوني للمكوث، يقول لي: "لا تذهب مع المشيعين، أخاف العَتَمَة والوحدة، أخاف من عظام أخوتي الجافة، أريدك، أنت ابني وسندي، لا تتركني وتذهب مع المشيعين، وتمد يدك للمعزين كأنك تتخلص مني". أريد أن أنبش هذا التراب، التراب المستعمل، أبحث عن بزّ أمي، حلمة الثدي المغبرة بالرمل وبالموت. كنت أريد أن أرضع أمي بشكل حُرٍّ وطوعي. أريد أن أشربها بشكل شهواني، أو بفم من الينسون. كنت أريد أن أرضعها من جديد. لم تعرف أمي طيلة حياتها ما يدور برأسي. كانت ترى أوراقي وكتبي وأقلامي، وتبذل مجهودًا سحريًّا، لكي تنبئها هذه الكتب بما يدور برأس ابنها

---

[٧] حجر يلمع تحت لساني، أمتصه في عذوبة، بارد، ناعم. أصابعي تتحسس الدم النافر من جبيني. انتبهتْ أمي لرأسي المشقوق وقالت: مِية مرة أقول لك خلي بالك من الرُّخامة اللي في وشّ الباب".

البكر. لم يدلها أحد. كانت دائمًا تنتظر عودتي، تنتظر زوجتي، وتنتظر أطفالي، مثلي مثل كل أبناء القرية، ومثلها مثل كل الأمهات، ولكني لم أرتكب بعد هذا الحلم. كنت أريد أن أخبرها الآن بما يدور في ذهني. كنت أريد أن أقول لها: يا أمي، يا يمامتي الضائعة، يا زوجة هذا الرجل الأرعن، أيتها الجيفة المقدسة، أيتها الحكمة الضائعة، يا بوابة الرحمة التالفة، التالفة مثل حبات برتقال، مثل بذور الذرة التالفة. يا أمي يا فائقة الوصف، أمي الضائعة في أسراب الذباب والبراغيث، يا قديسة مثل بقة نائمة في حِضن الهيكل، يا مِجمرة الرب المشتعلة دون جمر، يا أيقونة الخلاص الملوث بدم أبكار القرية، ومواشيها وخرافها ومعيزها وفراخها، أيتها المحبة التي ضيعتني، أيها الرحم الذي أتلفني، أيتها البطن الذي لوث كل خلايا جسدي. صرت جسدًا سرطانيًّا، أنمو بلا اتجاه، أشتعل دون انتظار للمواعيد التي حددتها ساعة الروح. يا أمي القديسة، الوديعة، كنز الايمان، أنا لم أعد ابنك، مثلما دائمًا، لم أكن ابنك، أنا ابن هذه الفاجرة التي حملت بي، وابن هذا الرجل الغائب، الموجود في الجبل، الذي ضاجع الفاجرة، وتكتمت على حملها، كأنها تحفظ سرًّا مقدسًا، أو قربان التناول في رحمها، وعندما حانت ساعة وجعها ومخاضها، ذهبت إلى

باب كنيسة القرية، وزعقت بصوت أفعى، وتلوَّت مثل شجرة، فاندفعتُ من فتحتها، غارقًا في دمها ومخاضها، ملوثًا بالجوع والجنون، وجلست على باب الكنيسة أنتظر صباح الرب، غير أن الصباح لم يأت، ولما تأخر الرب، جئتني أنت، أيتها الحاضنة، النبية، وجاء معك هذا الرجل الأرعن، متلفعًا بكوفيته الزرقاء، ملثَّمًا مثل قطاع الطرق، وتظاهر بأنه يوسف النجار، ووضعني في حجرك، وقال لك: خذي هذا ابنك. وأنت بدورك قلتِ له: هات ابني. وكنت أنا في هذا المشهد أقلد دور الكاهن الذي يبارك زواجكما.

أحلم بنافذة تطل على قبر أمي. أحلم بقبر يفتح على نافذتي. أحلم بأمي تطل عليَّ من قبرها/ من نافذتي. لا شيء يأتي من وراء القبر، ولا شيء يلوح من وراء نافذة. لا شيء من وراء لا شيء. فقط عدم يأتي وعدم يروح وعدم يمتد.

سأحكي لك حكاية وقعت لي عندما كنت في الاعدادية. في يوم جاءت إلى مدرستنا فتاة من المدينة وذلك لظروف عمل والدها، ورغم أصولها الريفية، كانت المرة الأولي لي أن أرى فتاة عاشت في المدينة وصارت تتعلم في مدرستنا. رأيت من قبل نساء المدن، ولكن طول الوقت كن بالنسبة لي نساء نبيع لهن بضاعتنا وحسب. كان أبي يصطحبني معه إلى المدينة أو يرسلني بمفردي محملًا بكميات قليلة من البضائع على قدر تحمل جسدي الصغير، أحمل مرة جبنًا ومرة أخرى لحمًا. أذهب إلى زبائنه حالمًا ببعض النقود التي تخصني وببعض القبلات التي كانت تضعها على جبيني هالة. هالة هي المرأة الأولي التي زارتني في أحلامي وما زلت أتعقب رائحتها حتى الآن. كانت بشرتها بلون عسل القصب، لا ربما بلون الحناء، لا ربما بلون الذهب، لا كانت بشرتها باللون الذي يثيرني، ولها رائحة تجعل جسدي يدوخ. عيناها متسعتان على سوادٍ غيرِ مسبوق. شعرها منسدل على كتفيها في تألق ومودة. أصابعها الطويلة تداعب خصلاتها كأنها في فيلم سينمائي وهي في وضع لا مبالٍ. عندما تضحك أحسُّ أن المراكب التي تسير في النيل بي من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق مرة أو مرتين في الأسبوع أحسها

ترقص فوق أمواج المياه المرتفعة. كأن إلـٰهًا يضحك فيرتج الكون بأكمله إجلالًا وإكرامًا. عندما كنت أراها في صيدليتها واقفة تحضر الأدوية للزبائن كانت كل خلايا جسدي تمتلئ بالفرح وارتعش وتصيبني لعثمة. الكلام يخرج مبللًا بالشهوة، ونظرة عيني تجرحني كلما حاولت التطلع إليها. كانت تأخذ مني الأشياء وتضعها أسفل المكتب ثم تنظر لي وتضحك وتقول لي:"إيه أخبار المذاكرة؟ عايزينك تبقى دكتور". لم أقدر على الإجابة مرة واحدة. فقط أنظر إليها. كنت أريد أن أبقى بجانبها. كنت أريد أن أتطلع إليها فقط. كنت أريد أن أشم رائحتها. كنت أريد أن أعرف لماذا فستانها الأسود بكل هذا البهاء. كنت أريد أن أقول... لا شيء فقط كنت أريد أن أقول إن زوجها كان يكرهني وكنت أبادله كرهًا بكرهٍ أشد وأعمق. فكرت مراتٍ في موته، ربما في قتله، فهو زوج غبي. لماذا تزوجتْ من هذا الفظ؟ عندما عرفت بأنه أقل منها تعليمًا، ولم يدخل الجامعة مثلها؛ فهو خريج معهد فني، كانت حيرتي أشد. لماذا إذن تزوجتْه؟ سألت أبي فقال لي: "أحبته وتزوجته رغمًا عن إرادة أهلها". هنا أحسست بخنجر يدخلني ويمزق كل الخلايا التي كانت

تستجيب فقط لرائحتها. أحسست أنها خانتني. نعم هالة هي أول أمراة تخونني أيضًا.

كنت أريد أن أحكي حكاية وقعت لي أثناء المرحلة الإعدادية. بالتحديد عندما كنت في الصف الثاني الإعدادي. عندما رأيت لأول مرة فتاة من المدينة في مدرستنا. كانت فتاة طويلة وبيضاء وملابسها نظيفة وتضع إيشاربَ صغيرًا على شعرها. شعرها لم يكن أسود تمامًا مثل فتيات القرية، هل هناك لون أسود تمامًا؟ هل هناك لون – تمامًا – كاملٌ؟ ربما دائما ثمة لون أو ما يفصح عن لون، ما يدعى بأنه لون. أين يمكن للمرء أن يجد لونًا تامًّا؟ ربما كان لونه بنيًّا، أو أصفر، لا أذكر، يبدو أن الزمن يغير الألوان التي تحتفظ بها الذاكرة مثلما تتغير ألوان ملابسنا بفعل الغسل والاستعمال. اللون أيضا يتآكل. الألوان تهرم في الذاكرة، مثلما تهرم الأصوات. أنا لا أذكر صوتي عندما كنت طفلًا. ولا حتى الآن. صوتي يبتعد كلما حاولت تذكره، فقط يمضي، يخرج، ولا يعود ثانية، يتبدد. لا يمكن استعادة صوت في صورته الأصلية. كل ما هنالك أننا يمكن تثبيته عبر الأجهزة. كنت أريد أن أحكي عن ليلى التي جاءت إلى مدرستنا. فتاة طويلة وبيضاء ونحيفة ولها جمالها الخاص. لم تستطع

الانـدماج مـع الفتيـات وكانـت طـوال الوقـت بمفردهـا. تـذهب إلى المدرسة وحدها وتعود وحدها، ولم نقدر نحن الأولاد على الاقتراب منها. ظلت وحدها عامًا كاملًا وفي الإجازة المدرسية وبعد نجاحها في الإعدادية أشعلت النار في نفسها وهي في غرفتها. احترقت وحدها. كانت فتاة جاهزة للزواج السريع بالنار. كنت أعرف أنها لن تكمل تعليمها الثانوي، كان والدها يريدها أن تتزوج. هناك من يتودد لخطبتها. كان خادمًا في الكنيسة يجهز نفسه لكي يكون قسيسًا قد ذهب لامتحان المدرسة الإكليركية وفشل في اجتيازه، كان يريد أن يتزوج بها. لماذا أحلم دائمًا بأن ليلى احترقت في مكان آخر غير غرفتها. كنت أراها على السطح تنشر ملابسها وهي في لامبالاة رائعة. كنت أحس بأنها قادرة على الطيران. لم تكن تسير على الأرض مثل الفتيات بل كانت تطير، فقط تلامس الأرض في الخطوة الأولى ولكنها في الثانية كانت هناك مسافة تفصل بينها وبين الأرض، ثم تعود تلامس الأرض من جديد في الخطوة الثالثة، وتطير في الرابعة، هكذا كانت تسير، خطوة على الأرض وخطوة خارجها. ربما اشتعلت وهي على السطح وطارت محلقة في الفراغ ومخلفة وراءها رائحة بيضاء من صندلها ودخانًا بنيَّ اللون من مريلتها

المدرسية. لقد نثرت رمادها على كل السطوح في هذه الليلة فأصيبت كل الحيوانات بخرس حتى الصباح.

ألف

أريد أن ألـمُس قاعَ جسدك. أن أحكَّ بأظافري طينتك. أن أفتح مسامات ألوهيتك. أنثرك على صفحة الروح وألمك ثانية من أجل صعود جسدي. كانت أمي تعجن عجينها، تطيره في الهواء، دوائر بيضاء، دوائر، دوائر، وتعود به إلى طبليتها مثل درويش. ألف باء الرقص تعلمته على طبلية العجين. وأنت كنت هناك تراقبين أمي وفرحي وتضحكين، ضحكة فاتنة، لعوب. وها أنا أدور حولك، مثل دوائر العجين، ولكن لا أرى أي أيدٍ تمتد نحوي لتحملني. معلَّقًا أنا في فراغ إلٰهٍ لا يجيد الرقص. سيقذف بي نحو أتـُّونه، وكأني ابن إلٰه. لا تنتظري معجزتي تمر على الشهود لكي يصدِّقوا ربوبيتي.

شرق

دخلت مغارة الجبل الشرقي وانتظرت ظهور الوحي أو حدوث المعجزة. كنت أقول لنفسي سأهرب من هذه القرية الملعونة إلى الشرق. لقد تكلم الله إلى موسى على جبل مثل هذا الجبل فلِمَ لا يأتي ثانية ويكلمني وأكون رسولك أيتها القرية الكافرة الجاحدة، الشريرة؟ ها أنا آتيكم بمعجزتي مثل أي نبي تنتظرون حضوره مثل أيقونة زائفة رُسمت على عجل وقلتم الزيت يرشح من جنباتها والنار لم تمسسها بسوء وظلت غصنًا أخضر هاكم معجزتي سوف أمشي على جبل دون أن يلمحني أحد.

باء

قلت لك، إن أمي حرمت عليَّ أن أراك ثانية، وأنت تطاردني في كل مكان، في الزوايا، وعند الجيران، وفوق السطوح، وعند طلمبة المياه، وفي فصول الدرس، وفي المراتب، والشراشف المعلقة، إلى أين أهرب منك؟ لو صعدت إلى فوق فسأجدك هناك، وإن نزلت إلى تحت فهو موطنك؟ لا مفر. سأدخل حجرتك، وأعلق حزني على باب حجرتك علمًا، وأقول لأمي: أنا لست ابنتك. وزوجك ليس بأبي، وإلٰهك مجرد حلية، أو أيقونة زائفة، تقولون إنها ترشح زيت من جنباتها، وإن النار لم تمسسها بسوء، وظلت غصنًا أخضر. هل هذا ما تريده مني؟ انتظر عليَّ قليلًا حتى أنضج في بيت أبي، لكي أكون جاهزة للريح والنار والماء والتراب.

دخول

كان جدي يمتطي حمارته العرجاء، ويدخل القرية في المغيب، وحوله أطفال القرية يصيحون نحوه ويلقونه بالحجارة كمجذوب أو صاحب رسالة. كنت وقتها أستعيد ذكرى المسيح لحظة دخول أورشليم ومن حوله الحواريين بسعف النخيل والبنات بالطبول والغناء. جدي يجلس شامخًا كحجرٍ غير مبالٍ بالبصق والإهانات فاتحًا طرقه في القرية الكافرة الجاحدة الشريرة وفي يده عصا يهش بها الذباب من فوق كَفَل الحمارة.

كانت المدينة تغط في النوم. ما أبشع المدن حين تنام! وكانت القطارات تنضح

صـدأ وتزعـق في جـوف العتمـة وصـراخ الكـلاب. نزلـت المحطـة متسـللًا كـأني لـص يقـتحم خزانـة حـانوتي. الشـنطة معلقـة علـى كتفـي مثـل بـائع أبلـه يجـوب صحـارى لكـي يبيـع الرمـل. أبحـث عـن مكـان أسـند إليـه ذاكـرتي. نصـف رجـل يلـبس الجينـز ويحمـل حقيبـة باليـة وبطنًـا خاويًـا وعشـرين جنيهًـا وذاكرة ملتهبة وأحلامًا بعيدة ومرارات..

تـذكرت جـدي عنـد دخولـه القريـة محمولًا علـى ظهـر حمـارة عرجـاء ومـن حولـه الصـبية يهتفون: هذا هو الرجل الأبله، فاقتلوه!

باء

أدعوك بـاء لأنـك بـاب يقـف علـى حجـر، أو بوابة تستند إلى وتدٍ. أدعوك باء لأنك ربة وربية ورابية وشراب ومحبة وبلية وبرتقالة وبرد.

أمـك اليـوم نهـرتني، وقالـت أتركـك في حالـك، لا أحـد يتقـدم إلى خطبتـك بسـببي. أنت أيضا سمعت كلامها، رأيتك واقفة خلف الباب تتنصتين وتضحكين، ولما التفتت إليك رحـت تبحثـين عـن مخبـأ، وخلتـني وحيـدًا في الشارع أداعب كرًة من قماش وجورب.

انتظرت خروجك بالليل، ولكنك تظاهرت بالنوم، رغم أني رأيت مصباح غرفتك مضاء.

دم..

وفجر..

ولوح رخام..

رأيت موسى كليم الله يمسك بيديه لَوْحي الشـريعة، ولم يكـن هنـاك جبـل، بـل كـان بحرٌ أبيضُ، ونساء متشحاتٌ بالسواد.

لوح رخام..

ودم..

وفجر..

ومقبرة..

صَـعِدت إلى الجبـل الشـرقي خوفًـا مـن سـكين أبي الـتي تبحـث عـني في كـل اتجـاه. اختبـأت خلـف صـخرة، وهنـاك رحـت في سبات. حلمت أني أصعد جبلًا أو أمخر بحرًا أبيض.

وردة..

وامرأة..

وتابوت..

وحجر من نعاس.

لا تكذب.

لا تدخل في تجربة.

لا تشتهِ امرأة جارك.

لـك خليلتـك وعشـيقتك، فاسـتحم بمـاء الـورد وادخـل بهـا إلى غرفتـك وأغلـق بابـك واركـع للصـلاة عنـد بـزوغ الفجـر، عاريًـا كمـا ولـدتك أمك/صـخرة، أو نبيًّـا كمـا أنجبـك اللـوح، أو هاربًـا مـن جـوف حـوت.

طفل الخزانة

أخذتني جدتي من رحم أمي، ونظَّفتْ جسمي من دم المخاض. لعقت مخاطي بلسانها، وحفظت بعضًا منه في قارورة، تشبه قارورة الزيت، وقالت في سرها: "هذه القارورة ليوم عرسي". لم يفهم أحد لماذا تفعل جدتي هذا الفعل الغريب، وهي لم تلتفت إلى نظرات الاستهجان. قارورة مليئة بالمخاط والدم من أجل عرسي. بصل وخل وماء ورد من أجل تطهير جسدي، ومن ثم لفتني بقماط أبيض مطرز بخيوط مذهبة. تحدد دور أمي بأنها تكون فقط مرضعة، عندما ينزل اللبن في صدرها، عليها أن تستأذن جدتي، وتصعد إلى غرفتها، وتسحبني من خزانة ملابس جدتي، لكي تمد لي حلمة صدرها الممتلئ. وضعتني جدتي في خزانة ملابسها بعد تقميطي، هيأت مكانا دافئًا لرقدتي، وراحت هي خلف الخزانة تغني من أجل عصافير محتملة ونوم هادئ ورزق واسع وصحة وفيرة وملائكة من أجل الحراسة. كانت جدتي تخرجني من الخزانة كل صباح وتعرضني للشمس خارج غرفتها، وأمي تنتهز هذه الساعات، وتصعد إلى الدور الثاني لكي تضعني في حجرها وتحفظ ملامح وجهي الغائبة،

التي تتشكل في غيابها. من داخل الخزانة كنت أتلصص على الخارج. تدخلني الأصوات كتيارات هواء ناعمة أو خشنة أو باردة، دافئة، لزجة، ناصعة البياض. كان صوت أمي ناصع البياض، مثل ريح في أول الفجر (أفكر الآن برياح الشمال عندما تلامس برفق شديد في أول الفجر بشرة المشمش فيأخذ في التدرج اللوني بين الأصفر والأحمر. إن المشمش لفتاة مراهقة يُنضجها الخجل على مهل وعلى مودة) يأتيني دافئًا فأتحرك نحوه بشكل غريزي، ينقلب جسدي داخل الخزانة، وعندما تجدني جدتي على هذه الحالة تفهم أني أتجه نحو أمي، فتضحك وتحس بالغيرة تجاه أمي، ولكن ما كان يطمئن جدتي أني أحسُّ صوتها مثل ناي بعيد يداعب قطيعًا من الماعز. صوت أبي مثل ريح متقطعة، سلسلة جبلية، دوامة هواء، ورائحة عرق تزكم أنفي، عندما يدخل الغرفة، كنت أعطي ظهري لباب الخزانة، وأتظاهر بالنوم أو الموت. معلق بين منطقتين، منطقة معتمة وأخرى ليست مضاءة تمامًا. منطقة دافئة بالنمل الذي يزحف ناعمًا على جسدي، يمر بتجاهُلٍ تام، لا يراني إلا بوصفي معبرًا أو جسرًا، ومنطقة دافئة، تضيئها شمس جدتي التي تتفرق على سطح المنزل. شمس واهنة تدخل خريفها العذب، وبعض الكتاكيت التي تلهو

وتزقـزق مـن آنٍ إلى آخـر، بـين امـرأتين، واحـدة تلعـب دور الأم، وأخرى تلعب دور المرضعة، بأم ليست أمي، وبامرأة هي أمي لا تأتي إلا بعد الحصول على إذن. معلق بين زمنين رماديين، زمن للأثواب التي تلف وحدتي ونومي في الخزانة، وهو زمن جدتي، الذي يتسرب كعطـر إلى جسـدي، وزمـن رَضـاعتي، زمـن أبـيض، مكتنـز، وعلـى ملابسي يتجاور الزمنان بمحبة فائقة، يتخثر لبن أمي او أتغثغ بعضه بعـد الرضـاعة علـى ملابسـي الـتي تخيطهـا لي جـدتي. قالـت جـدتي للقسيس عليك أن تأتي لتعميد ابني. لم يوافق القسيس في أول الأمر وقال لها هذا السر لا يمكن أن يتم في البيوت، لابد وأن تأتي به إلى الكنيسة مثله مثل باقي الأطفال. بهدوء شديد قالت له كل الأسرار يمكــن أن تــتم في البيــوت، التنــاول يــتم في البيــوت للمرضــى، والاعـتراف، حـتى الـزواج يـتم في البيـوت، هنـا قـال لهـا القسـيس لم يحـدث زواجٌ في البيـوت. هـذه المـرة أحسـت جـدتي بأنهـا ستكسـب معركتها وقالت له والدك كان يكلل في البيوت ولم يتوقف عن هذا الأمر إلا بعد أن سقط السطح عليه في مرة من المرات فأقسم باسم الرب ضابط الكل بأنه لن يكلل لأحد أيًّا كان في البيوت، ومن يُردِ الـزواج فليـأتِ إلى الكنيسـة مثلـه مثـل أي بهيمـة تـذهب إلى المسـلخ.

بالطبع لم يقل القسيس هذه الجملة الأخيرة، ولكني أشعر أنها هامة في هذا السياق؛ فالمسيح نفسه شاة أو خروف سيق إلى الذبح. المسيح هو ذبيحة حيوانية بامتياز؛ فهو الخروف المذبوح، وهو شاة بلا عيب، وهو الذبيحة التي يتنسَّمها الله رائحةَ رضا، وهو أسد يهوذا الرابض على جبل جلعاد، وهو نسر، وهو الذبيحة والمذبوح. وختمت جدتي قولها بتهديد بالغ: "ابني كمل أربعين يوم ولو ما جتش ذنبه في رقبتك". أذعن القسيس لرغبة جدتي، وجاء إلى البيت من أجل العماد، وكان في عجلة من أمره، غطسني في طشت ثلاث مرات، وأخرجني بعنفٍ شديدٍ، لامته جدتي عليه، وقالت له: "هو انت بتعمِّد ولا بتسلخ أرنب". في ظني أني ابتسمت لجدتي. وأخرج زجاجة زيتٍ عطنٍ، ودهن به جسدي، كل فتحات جسدي التي يمكن للشيطان أن يتسلل منها، أوصد كل الأبواب أمام ملك الجحيم. لم يدر أن الجحيم يستعر في رأسي وأن الشيطان يطل بكل مجده وبهائه من نوافذ سرية لا يقدر عليها سر الميرون المقدس. دارت جدتي حول الطشت ثلاث دورات وهي تردد وراء القسيس قانون الإيمان {بالحقيقة نؤمن بإله واحد...} هذا القانون الذي وضعه

أثناسيوس الرسول في مواجهة العالم. ورددت أيضًا {أجحدك أيها الشيطان وأجحد كل أعمالك الشريرة...}.

راحتْ تلعب معي لعبة الموت، تقلِّد الدُّمى التي نلعب بها. ابيضت وانتفخت، وأنا أغرز أصابعي في جسدها، أريد أن أطوحها مثل الدمية وأشد شعرها، جحظت عيناها وثقل جسدها، لم تكن دمية، كانت ميتة، لم تعرف أنها ماتت، أنا رأيت الموت. دمية تهرب مني، تسبح مبتعدة في ظلال بيضاء. كان جسدها يشبه جسد الغريق. أكره الموت غرقًا أو حرقًا، أريد أن أموت على ركبتَيْ من أحب. قالت لي زوجة خالي: استيقظ في السادسة صباحًا. وقال لي، وهو على كنبة الأنتريه، خذيني في حجرك. رمى رأسه في حجري، ومات. لم يلعب معها لعبة الموت والحياة، فقط قال أنه يريد أن يريح رأسه المتعب من اليقظة، يريد أن ينام، فذهب مبتسمًا وهانئًا في سبات طويل، وهي ما زالت تفرد حجرها تنتظر عودته من الإغفاءة.

- حنان قُومي.
- ......
- خلاص مش هاضربك وخدي عروستك.
- ......
- أمي، حنان نامت.

جاءت أمي، وحملتها إلى غرفتنا في الطابق الثاني، ووضعتها على سرير ولادتي، وغطتها بشرشفٍ أبيض. اليوم قائظ، والذباب أنهكته الحرارة، فبدأ ينزلق على أرضية البلاط كأنه يستحم أو يتمرغ مثل قطيع من الحمير الرمادية أو سرب من الدجاج. أخرجتني أمي من الغرفة وأغلقت الباب، بعد أن ارتدت جلبابها الأسود، فهمت أن كارثة في طريقها للظهور. نزلت عبر السلم الحجري الذي يلمع تحت وهج شمس بشنس، هل سمعتها تغمغم ببعضِ كلماتٍ أم أتوهَّم ذلك؟ كأني سمعتها تتعثَّر. تعلقت بمقبض الباب، ونظرت من ثقب المفتاح إلى الداخل، رأيت حنان كما وضعتها أمي، بعد لحظات سمعت صوت صراخ وولولة يأتي من تحت، وكانت عمتي هي أول الصاعدين إلى الغرفة تولول مثل امرأة معتوهة. عمتي بطة بيضاء منتفخة. انسحبت من هذا المشهد المأسَوِي، ورحت أفتش عن فتاة أخرى لكي ألعب معها أو أقتلها.

ملك أم كتابة؟

رمت العملة وصاحت ملك! ها لقد ربحت.

ضحكت وقلت لها بالفعل أنت تربحين، فصمتت وكان في صمتها ابتهاج بالحظ وبالنصر الذي حالفها وأنا كنت تعسًا للخسارة التي لحقتني. ربحت هي وصاحت (ملك)، فذهبت إلى الموت. خسرت أنا وقلت هناك كتابة، على الوجه الآخر رأيت ثمة كتابة تظهر وتختفي، لم أرَ قط ملكًا بحياتي، ولم ألتقِ بأي لون أرجواني إلَّا في الحلم أو فوق الصليب المعلق فوق سريري والدم نازف كل ليلة وأنا أفغر فايَ وأشرب، شربت دم الرب كله إلى أن صار الصليبُ مجرد قطعة خشب تحمل ذكرى حلم بأن ثمة إلـٰهًا في مقتبل العمر صعد نحوه ونام هناك. صاحت (ملك)، فماتت. خسرت أنا فذهبت لكي أكتب عن حنان التي كسبت وماتت ومنحتني الكتابة. هل كان على أحدٍ أن يموت عوضًا عني لكي ألتحق أنا بالكتابة، كم من مرة عليها أن تموت لكي أكتب؟ من الذي يكتب الآن ومن الذي مات؟ صرت لا أخاف الموت لأني كنت سأموت ورأيت من يموت بجواري وفي حجري. كان الموت يتمدد بجواري، باردًا، ويابسًا، وأبيضَ، وكنت مذهولًا ومصابًا بلعثمةٍ وانهياراتٍ

ومتأرجحًا بين السلم الذي يقودني إلى غرفتها وبين فرجة الباب الخشبي العظيم الذي يدلف بي إلى الشارع. خرجت إلى الشارع، ولم أرَ جنازتَها ولم أنم في البيت هذه الليلة بل أخذتني أمي إلى بيت جدي وغسلتني وهي تتمتم ببعض الكلمات وتهمس في جسدي بتعاويذ وآيات من الإنجيل. أنت ابني وأنا اليوم ولدتك ولن يمس حجر رجلك، وألبستني ثوبًا حريريًّا أبيض فالتهمته كاملًا، فكان لطعم القماش مذاق لبن أمي.

يمكنني من هنا، أن أشم رائحة القرون الوسطى التي كانت تدور فيها قريتي، معلقة كالفاكهة الطازجة بحبل الوقت، أو مثل ثريًّا في سقف كنيسة مهجورة، ربما يناسب عزلتها أن تأتي إليَّ مثل ساقية مفردة تغزل وحدة مياهها بصبر إله مسن. تأتي القرون الوسطى من درج سري في أرشيف صحراوي. تأتي بدون كرنفالات ماجنة، وبلا أعياد للمغفلين والحمقى، وبلا ساحات شعبية للإعدامات البابوية المقدسة، وبدون غجر، وبدون شعراء رحل أو تروبادور. كنا نحن الأطفال الرحل، وملابسنا لا تكفي أجسادنا، ولا تتسع لضيافة صيفين ولكننا لم نكن غجرًا، كنا أطفالًا للقرون الوسطى. الحياة هنا، تتوزع بين الكنيسة المضاءة بقناديل الزيت وبمصابيح الجاز أو بالكلوبات في أفضل حال، والمدرسة التي تشبه الكتاتيب إلى حد بعيد. نذهب إلى المدرسة ونحن نلبس الجلابيب، وكان البعض منا يضع في سيالته وجبة الفسحة المدرسية، أو طعام ما بين الحصص، وهي "مفروكة"، عيش بتاو مكسر ومخلوط بالجبن، ويتم تكويرها بكف اليد وابتلاعها. بعد المدرسة ننطلق في الحارات والأزقة، مثل كتاكيت منهكة أو قطيع ماعز مدجن، نحو بيوتنا لكي نتخلص من كراريسنا المهترَأَة ومن خطوطنا التي دائمًا تميل إلى أسفل، باتجاه نبع

في آخر الصفحة. لا أعرف لماذا لم تصعد خطوطنا إلى أعلى. كل الخطوط كانت تنحدر إلى أسفل وكأننا نعجل بنهايتها، أو نريدها أن تشرب بالفعل كما كان يقول لنا المدرسون ويضربوننا لأن خطوطنا نازلة لكي تشرب. لم تكن خطوطي مائلة أو منحدرة، كنت مجتهدًا وأعافر في ضبط الخط، أحاول مدَّه مستقيمًا وألتف من جديد لكي أسنده بخط آخر تحته. تظهر خطوطي في حالة ارتواء، كانت تمشي ببطء ولكن باستقامة.

المدرسون أيضا يلبسون جلابيب مثلنا، ويذهبون إلى غيطانهم مثل كل فلاحي القرية بعد اليوم الدراسي أو أثناءه، وبالليل يذهبون إلى الكنيسة وهم متعبون فيغالبهم النوم، فنرى رؤوسهم تنزلق إلى أسفل مثل خطوطنا، وفجأة تدحرج في حجرهم كأنها حجر تخلص من يدين مجهدتين، كنا نغرق في ضحك صامت أو صاخب، وعندما يستيقظ أحدهم ويفهم ما يدور من خلف ستارة نومه يبتسم ابتسامة جميلة ومنهم من كان يكتم غيظه ويؤجله إلى صباح اليوم الدراسي، وفي المدرسة يخرجنا من الطابور ويضربنا وهو يصرخ: "الكنيسة مكان للصلاة مش للضحك يا ولاد الكلاب".

قسيس القرية كان يأتي أيضًا إلى المدرسة، ويمر بالفصول، فنذهب إلى تقبيل يده وصليبه، وبعد أن يتلو كلامًا عن المحبة والاحترام يأمرنا بالقيام والتوجه بعيوننا نحو الشرق ورفع أيدينا للصلاة. كثيرًا ما كنا نفكر بهذا القسيس هو وزوجته، هل هما مثل باقي الرجال والنساء الذين نعرفهم؟ هل يضاجع القسيس امرأته؟ هل يمتلك قضيبًا مثلنا، هل يقبِّلها، وماذا يفعل بهذه الذقن عند التقبيل؟ ربما الأمر ينطوي على صعوبةٍ ما. قسيس القرية كان يربي الماشية والفراخ، وكنا نسمع أنه يقوم هو بنفسه بتقديم الطعام للفراخ وللبهائم الكثيرة التي يمتلكها، هو الذي يجمع البيض ويسهر على الفراخ التي ترقد على بيضها حتى تفقس، ويمد إصبعه في موخرة الدجاجة لكي يعرف إن كانت تحمل بيضتها أم تخلصت منها. نوبة من الضحك تنتابنا ونحن نهمس بهذه الحكايات. زوجة القسيس لا تهتم بالفراخ ولا بالحظيرة، بل كانت تحرص دائمًا على أن تكون ملابسها نظيفة ورائحتها عطرة. كانت النساء يُقبلن يد زوجة القسيس كما يقبلن يد زوجها. كانت تجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ وحولها عائلتها وعائلة زوجها على كراسيّ، أما النساء الفقيرات فيفترشن الأرض أو يقعدن في الطرقات والممرات الترابية. على أي حال، وقتها كان تراب

الكنيسة مقدَّسًا، وتراب طرقاتها أيضا بركة من الرب. عندما أنهيت دراستي الإعدادية، اكتشفت أن قسيس القرية لا يعرف القراءة بشكل جيد، فكثيرًا ما كان يخطئ في القراءة، وطالما نَسِي أجزاءً من سير القديسين، ويخلط بعضها ببعض؛ فمعجزات مار مينا تذهب إلى مار جرجس، والعذابات التي مرَّ بها أبو سيفين يلبسها لشهيد آخر. دائمًا يكرر كلماته وجمله بشكل ممل وسقيم، وفي كل موعظة لابد أن يعرج إلى العشور والنذور، وآيته المفضلة قول الرب: "هاتوا العشور وجربوني".

في الفسحة، كنا نذهب خلف البيوت لكي نتخلص من فضلاتنا. كنا نقف صفًّا، ونكشف عن أعضائنا الصغيرة من تحت جلابيبنا، ونطلق مياهها إلى أبعد نقطة ممكنة، أو نجعل خطوط المياه تتقاطع معًا، أو نرسم أشكالًا في الهواء وعلى الحيطان وعلى الرمل. كانت هذه هي أولى ألعابنا الإيروتيكية. كنا نذهب إلى الغيطان أو إلى الأماكن الخربة ونلاعب أعضاءنا. كنا نحاول أن نجعل القضيب في فتحة الشرج. لا أعرف كيف توصلنا إلى هذه الألعاب، وهل كنا نرى أن كل عضو هو قضيب وكل فتحة هي شرج؟ في أول لعبة لي

مع فتاة وضعت قضيبي في فتحة الشرج. كنت أفكر أن الفتحة الأمامية التي تظهر كشق بين الوركين هي فقط للتبول. رأيت أطفالًا في الجوار، يمتطون جواميسهم وهي راقدة، يخرجون أعضاءهم ويثبتونها في شرج الجاموسة. حاولت أن أفعل مثلهم، ولكننا لم نكن نمتلك جاموسة، حاولت مع جاموسة صاحبي، فرفعت مؤخرتها وأزاحتني بعيدًا. لحظتها تمنيت أن تكون لي جاموسة لكي أستطيع أن أمتطيها. كان أبي يربي أبقارًا، مثل جدي، ووفاءً أيضا لمهنته الأولي كحارث؛ فالأبقار هي الأنفع في الحرث، غير أني كنت أحب الأبقار؛ فهي ملونة بالأبيض والأحمر والأسود، ولكن الجاموس لا لون له. عندما تستحم الأبقار كانت ألوانها تزهر، تلمع في وهج الشمس. كنت أرى الغيط فضاءً من الأبقار الملونة. لا أنكر أن الكبار من أصحابنا قد لعبوا دورًا هامًّا في نقل هذه المعارف الجنسية، التي كانت مزيجًا رائعًا ومسكرًا من الخيال. أذكر أن قريبًا لي قال لي مرة بأن الأستاذ (...) وهو الآن راهب بالدير، يضع البنت على حجره ويضرب لبنه. اذهب حالًا لكي ترى ملابسه، وبالفعل ذهبت للتو إلى الفصل الذي يدرس له هذا الأستاذ وطرقت الباب أسأله، وأنا أرتجف، عن قطعة طباشير. كان هناك في آخر الفصل،

وملابسه مبقعة بالأبيض. كان دائمًا يرتدي ملابس زرقاء أو سوداء، والبقع تظهر بوضوح، هكذا رأيت، في منتصف الجلابية. كان يضع البنت على فخذيه. كانت البنت بيضاء، ممتلئة، عيناها تلمعان، ووجهها مثل جمرة، أو حبات فراولة مغسولة، أوه.. لقد تزوجت وأنجبت من البنات أربعًا ومن الذكور ثلاثة، والراهب في ديره الآن، نائم في صومعته، أو يبحث عن طريدة أخرى، تلوح له في كتاب الصلوات أو على مذبح الرب المقدس.

عندما دخل التيار الكهربائي القرية، لم يتغير الحال كثيرًا، فقط الكنيسة صارت أكثر إضاءة، وتناقصت أعداد الخفافيش التي كنا نصطادها بعصينا في الشوارع قبيل الغروب ونفحص قبحها المخيف.

كثيرًا ما كنت أمر بالغرفة التي ولدت فيها، في بيتنا أو بيت جدي، الذي صار لعمي بوضع اليد. كنت أتفقد غرفة طفولتي وطفولة أختي. أذكر جيدًا الصورة التي كان عليها الدولاب والموقع الذي كان يتنفس فيه السرير، والستارة الزرقاء التي صنعتها أمي للنافذة التي تطل على الخارج، على السطح، وعلى بنت الجيران

(...). كنت ألقاها في الكنيسة، وتأخذني من ثدي أمي، وتضعني على صدرها، فأشم رائحة بياض جسدها، تبحث يداي عن شيءٍ ما وسط عتمة هذا البياض، فأسمع ضحكة موشاة بالذهب وبالبَخور، وتشتبك يدي بيدها، وتصعدني إلى فمها لكي تضع لي نجمة في كف يدي الصغير. كانت تشتري لي الحلوى، وترقب سطح أمي يوم الأحد؛ فيوم الأحد كنت لها، وكانت صلاة الأحد من أجل إغوائي الأول. أصعد إلى الغرفة، أقتحمها بوصفها ملكية سابقة، كمن يأتي ليتفقد صندوق صوره الباهتة وكنزه المهمل بتواطؤ شديد. أجد زوجة عمي وقد حولتها إلى خن للدجاج وللبط وللكتاكيت وللكراكيب. تزكمني الرائحة وتتقلص معدتي فأهرب إلى الشارع، وفي طريقي أمر على جدتي التي تجلس خلف الباب الكبير مثل قبو، تنتظر زائرها الأخير. تناديني باسمي كأنها شمت رائحتي، فأقول لها نعم، فتقول لي بصوت واهن مثل صوت طفولتي الذي أتحسسه في الغرفة العلوية، وأشم رائحته في ملابس وهمية متعلقة بكلس الحيطان، وماء طشت الاستحمام الذي كانت تهيئه أمي لي قبل ذهابي إلى الكنيسة، كأنها تجفف سماء جسدي من أجل الأقمار المحتملة. تقول جدتي: "قل لأبوك يجي عشان أشوفه قبل ما أموت". أبي هو الوحيد

من بين إخوته الذي ترك بيت أبيه وتوجه نحو شمال القرية لكي يؤسس له بيتًا مستقلًّا، ويشيده من الطوب الأحمر، ويرفع له سلمًا رخاميًّا يصل بي إلى الدور الثاني، حيث غرفتي فيما بعد. لم يكن أحد معه في مسيرة البناء غير أمي وهي تحمل طفلتها الثانية وأنا خلفه أحمل ألواح السرير الخشب من الجنوب إلى الشمال. أبي هو أول من تنكر لمهنة الحراثة والزراعة وعمل بتجارة الألبان. لم أعرف من أين جاءته هذه الفكرة؛ فهو أول من عمل بهذه التجارة. كان يدور على البيوت يجمع لبن الماشية ويصنع الجبن ويذهب بها إلى البندر ليبيعها هناك لأصحاب الشقق من الموظفين وللتجار أصحاب البقالات وكان يعهد بزرعته إلى آخرين، يذهب هو فقط في موسم البذر أو ما يسمى بموسم التخضير أي تحويل الأرض السمراء إلى أرض خضراء، وفي موسم الحصاد مما جعله محط حقد أخيه الأكبر فكان يطلق عليه الخواجة مرة ومرة أخرى الدكتور. أبي هو أول من عرفته كافرًا بالفطرة، مما يجعل مقولة الايمان الفطري محل شك دائم. كان يجهر بكفره صباحًا ومساءً. لم يقترب من الكنيسة على الإطلاق، وعندما يذهب خلف جنازة كان ينتظرها في شارع مجاور. لا يعرف أن يرسم علامة الصليب وليست لديه قدرة على

حفظ أبسط الصلوات وأهمها "أبانا الذي في السموات....". لم أسمعه مرة يقول لقسيس كلمة "أبونا" بل يطلق عليه "أبو عِمَّة سُوده"، وقد عرف بفطرته أيضًا أنَّ الذين يذهبون إلى الكنيسة هم الذين يصلُّون الفرض وينقبون الأرض، وأنه لم يخف أحد قدر خوفه ممن يلبس عمامة سوداء. ذات صباح أحد، استيقظ أبي وهو يبحث عن حمارته، فلم يجدها مربوطة في مربطها بجوار النخلة، فسأل أمي عنها فقالت له: "النهارده الأحد، إنت عايزها في إيه بسّ، يا أخي فضها عاد، واسكت...". شتمها وأمرها بالخرس "مالكيش دعوه انت غوري من وشي". وبعد أن فتش عنها في الأماكن التي يمكن أن تلجأ إليها، وجدها فوق كومة من تراب فرن الخبيز، وصار لها نفس اللون الرمادي بعد أن تمرغت في التراب، ورأسها مرفوع نحو الشرق فصاح بها: "إنت رافعة وشك لفوق هتصلِّي يابنت الوسخ لما انت صاحبك كافر انت هتصلي، هاركبك يعني هاركبك". ووضع فوقها "المرشحة"، وذهب بها إلى جهته التي لا يعرفها إلا الشيطان وحده. أدركت مبكرًا أو متأخرًا وربما في لحظة مناسبة، يداهمني شعور دائم بأني أدرك الأشياء بعد مرورها، يأتي إدراكي للأمر بعد انقضائه، أو ربما بعد فوات الأوان، وأقول إن الآن لا يفوت. دائمًا

هو حاضر أبدًا طالما أني أفكر بالأمر فهو إذن لم يَفُتْ بعد. أتشبث بلحظة توهج أعصابي الحسية، وأحس أن الفكرة تمر في عمودي الفقاري وتلهبني. أحس سريانها في جسدي. تبدأ بتنميلة بسيطة في القدم، وبرد ناعم يلامس الأطراف، ومن ثم يسخن جسدي وتشتعل رأسي، وأحس أن جلدي يلتهب وكأني مصاب بالحمَّى، فأذهب إلى الكتابة أو للاستحمام أو للاستمناء. جاء الوقت الذي أدركت فيه أن الكنائس هي أماكن للنساء وللفقراء، أما الأغنياء عندما يذهبون إلى الكنيسة فهم يذهبون لكي يأكدوا سيطرتهم ولكي يتأكدوا من صورتهم الاجتماعية. تتوزع الأماكن داخل الكنيسة وفقا لهندسةٍ اجتماعيةٍ محددة؛ فالنقاط داخل الكنيسة ليست متساوية بل يجري تقسيمها حسب الطبقة والقرابة والدور الاجتماعي. كنت أعرف الأماكن الخاصة بأغنياء البلد، كيف يتوزعون وأين يجلسون وأيضًا وقت دخولهم الكنيسة، ولو سبقهم أحدٌ إلى مكانهم، فعندما يأتي صاحب المكان فعليه أن يترك مكانه فورًا، وينظر لنفسه مكانًا آخر. كنت أعرف أين تجلس زوجة القسيس وقريبات القسيس وزوجات الأغنياء وذلك في الدور الثاني من الكنيسة في مواجهة الهيكل تمامًا. وكان هناك كرسي أسفل

النافذة التي تقابل الهيكل في الدور العلوي من أجل زوجة القسيس. تجلس الزوجة وحولها نساء بدنتها، وهي نفس بدنة القسيس وزوجات الأغنياء ثم الفتيات اللاتي كان لهنَّ حظ ضئيل من التعليم فصرن يرتدين ملابس مختلفة عن المرأة التي لم تنل هذا النَّصيب. ودائرة أخرى لنساء يمتلك أزواجهن محالَّ بقالة أو قطعة أصغر من الأرض، وفي دائرة ثالثة تجلس النساء الأفقر وأخيرًا الأكثر فقرًا يجلسن على السلم أو في الطرقات الترابية بين حائط الكنيسة والسور، وهو ممر ترابي يوجد في الجهة الجنوبية، وممر مثله في الجهة الشمالية. عندما يمر القسيس بالمبخرة وسط المصلين يتوقف عند هذه النقاط مثلما يتوقف أمام أيقونة ويطوح المبخرة قليلًا فوق رأس القريب هذا أو الغني ويسلم عليه أما النقاط العادية التي يتخذها الفقراء فيمر سريعًا دون أن يلتفت إلى أحد إلَّا عندما يريد أن يوبخ أحد على فعلة ما أو يذكر آخر بعمل عليه أن يقوم به في أرض القسيس. الكنيسة، أي الدور الأرضي وهو المساحة الرئيسية، تتوزع إلى ثلاث مناطق؛ الأولى وهي الهيكل وفي وسطه المذبح والخورس أي المساحة التي يقف عليها الشمامسة، والمنطقة الثانية وهي المساحة الأكبر وفيها جموع المصلين المؤمنين، والثالثة وهي خارج

الأبواب، أي التي تقع بين السور الخارجي وحوائط المنطقة الثانية، وهذه المنطقة مخصصة للمبتدئين في الإيمان وللخطاة أي الذين ارتكبوا خطيئة كبرى، ويقضون فترة توبة، وهؤلاء عليهم أن ينصرفوا بعد العظة مباشرة ولا يحضروا باقي الصلاة، ووفقًا للتقسيم الكنسي الأرثوذكسي لا يحق لأحد من هذه المنطقة أن يدخل المنطقة الثانية أو الأولى إلا بعد أن يأذن له القسيس أو كما يقولون يمنحه المغفرة. هذا التقسيم الحاد لا يُتبع الآن رغم احتفاظ كل المعمار الكنسي به ولكن صارت المنطقة الثالثة للاشد فقرا والأقل مكانة في المجتمع. ابتداءً من السور الخارجي هناك ثلاثة أبواب من الحديد: باب رئيسي في منتصف حائط السور الغربي وبابان أقل منه، واحد في الحائط الجنوبي للسور والآخر في الحائط الشمالي، وعند الدخول من الباب الحديدي الرئيسي تجد نفسك في منطقة الخطاة، وهنا ثلاثة أبواب أخرى من الخشب، واحد في المنتصف وهو أيضا الأكبر بينهم واثنان على جانبيه في اليمين وفي الشمال، وهذه الأبواب الثلاثة تربط بين منطقة الخطاة ومنطقة المؤمنين. الباب الرئيسي مخصص لفئة الكهنة أي البطريرك والأساقفة والقساوسة والشمامسة أما الآخران فهما لعامة الناس من المؤمنين. يدخل القسيس من هذا

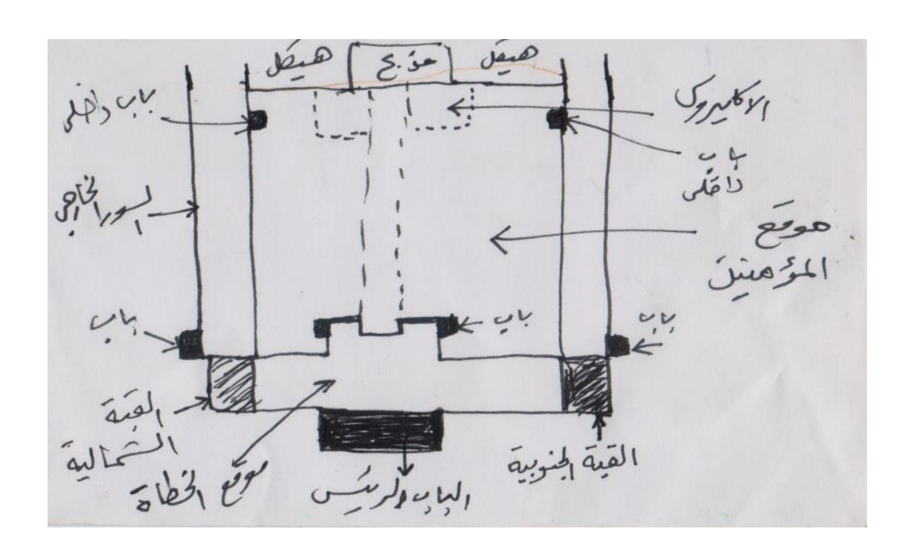
الباب، ويمر في خط مستقيم إلى باب الهيكل حيث المنطقة الأكثر قداسة أو ما تسمى قدس الأقداس حيث المذبح الذي تقام عليه الصلوات وتوضع عليه الذبيحة أي القربان المقدس. يوجد أيضًا بابان آخران من الخشب قرب نهاية حائط المنطقة الثانية، واحد في الشمال والآخر في الجنوب. يتوزع الأغنياء في نقاط محددة، هناك من يجلس في الصفوف الأمامية، وهناك من يجلس بجوار الأبواب الجانبية، ومن يجلس بجوار عمود من الأعمدة الاثنى عشر التي تقام عليها الكنيسة وذلك إشارة إلى الحواريين الاثنى عشر، وآخرون يقفون وراء الباب الخشبي الرئيسي بعد مرور القسيس منه وغلقه. كنت أرى فجأة ينفتح هذا الباب المخصص للكهنة ويدخل غني أو قريب للقسيس ويغلقه خلفه. عندما يوجد جدي الذي لي من أمي في الكنيسة وهذا كان نادرًا في الفترة التي كنت فيها أتردد على الكنيسة وذلك بسبب خلافاته المستمرة والدائمة مع القمص والد هذا القسيس. بعد خلاف لم أعرف تفاصيله أعلن جدي أنه سيبني كنيسة أخرى ويترك هذه الكنيسة لهذه البدنة، وبالفعل راح يجهز للأمر، ولكنه توقف بعد تدخلات كثيرة ومعارك ضارية، رغم أن جدي هو من ضمن الزمرة الأولي التي شيدت هذه الكنيسة وكان

لاعبًا أساسيًّا في قصة التأسيس. عندما كنت أرى جدي بملابسه النظيفة ورائحة الصابون الرائعة وقامته المشدودة وعصاه التي تشبه عصي راعي كنيسة كنت أحس بأني لست وحيدًا وبأني أقف على مساحة تخصُّني في هذا المبني المقدَّس، وكان يحدثُ لي نفس الأمر عندما أرى عمي موجودًا، جدي لثرائه وشخصيته وعمي لأنه ابن الجامعة؛ فهو من الدفعات الأولى التي تخرجت في الجامعة من القرية وعمي أيضًا صديق أبناء الأغنياء، ويلبس نفس ملابسهم، ويجيد قراءة الكتب المقدسة باللغة القبطية. الفقراء يعرفون هذا الانحياز التام والسافر للأغنياء ولأهل القسيس. يعرفون أنهم لا يأخذون نفس الاهتمام والرعاية والكرامة من جانب الكنيسة، بدءًا من التناول، فلقمة القربان للغني أو لأهل القسيس هي أكبر وملعقة الأباركه التي تصير دمًا هي أكثر امتلاءً وفي صلوات عقد القران او الإكليل هي صلاة مختصرة وسريعة ويمكن للقسيس أن يعقد قران مجموعة من العرسان دفعة واحدة وفي وقت قياسي لا يتجاوز الخَمْسَ دقائق، بينما الأغنياء تزيد مدة الصلاة عن ساعة بالإضافة إلى توشح القسيس بالثوب الرسمي وتلبيس العروسين ملابس العرس الكنسية، وفي الموت أيضًا لا يتساوى الفقير والغني؛ فعندما يموت الغني تأخذ

الصلاة طابعًا أكثر جدية وأكثر حزنًا، وتستمر قرابة الساعة مع دقات صاخبة وكثيرة للجرس، فيعرف الناس أن الميت شخص له أهميته، أما الفقير فلا يدرك أحدٌ متى دخل النعش الكنيسة ولا متى خرج منها، كأنه يمر مرورًا سريعًا ليذهب إلى مثواه الأخير ترافقه صلاة مستعجلة ودقتان أو ثلاث للجرس. كان القسيس لا يراني إلا عندما أذهب إلى بيته محملًا بنصيبه من أضحية مار جرجس، فَخِذ التيس كاملًة وصحيحًة، بالإضافة إلى الجلد أو عندما أدخل إليه أثناء القداس لكي أضع في يده جنيهات قليلة لكي يذكر اسمي وأسماء إخوتي في الصلاة. عندما كبرت طالبت بنصيبي كاملًا في سر الاعتراف، كان القسيس يجمعنا كتلاميذ المدرسة ويضع يده علينا دفعة واحدة قبيل التناول لكي يمنحنا غفرانًا للخطايا، عندما بدأت أرتكب خطايا مختلفة عن خطايا المرحلة الإبتدائية بدأت أطالب بجلسة منفردة معه، ويسألني إن كنت أخطأت وأنا بدوري أؤكِّد له أني دائمًا خاطئ؛ فابن الإنسان مولود لكي يخطئ. من منا يدعي برًّا أو تقوى. أعترف له بخطاياي الفعلية والمتخيلة، أني أمارس العادة السرية، وأحلم بفتيات عاريات، وكلما اقتربت للصلاة هاجمتني صور الفتيات فأذهب إليها وأنسى ما كنت أفعله. لقد مررت بفتاة وذهبنا

إلى مكـان خفـي، وتبادلنـا القـبلات. قبلتهـا وكانـت القبلـة حـارة وطازجة ولذيذة، ولمست جسدها، فخذها وصدرها ورأيت سرها أقصد عورتها. لا أعلم ماذا أفعل. وأستمع إلى الأغاني العاطفية التي تلهب مشاعري وتمنحني خيالًا جنسيًّا وصورًا غير طاهرة. كان القسيس يستمع لي أحيانًا بانتباهٍ شديدٍ، ويأخذ وجهه في الاحمرار وإيقاع تنفسه يضطرب، فأعرف أني بذلك استطعت أن أحكي حكايتي وفجأة ينتفض ويقول: "ربنا هيسامحك بس ماتعملش كده تاني. صلي وصوم انقطاعي تلات أيام". ويضع يده على رأسي، ويتمتم بكلمات أفهم منها أنه يصرفني من أمامه بلا خطية. طالما أحببت هذه اللعبة أن أفعل ما يحلو لي، وأذهب إلى القسيس لكي أتخلص من هذه الخطايا، وأعود نظيفًا كما ولدتني أمي، ومهيأ لتقبل السر المقدس، ومن بعدها أجرب خطايا أخرى، وأوساخًا أخرى.

رسم تخطيطي للكنيسة



عندما قرأت "الأيام" لطه حسين، وجدتُ أننا جميعًا في القرية كنا هذا الحسين، في ملابسه وفي طعامه وشرابه ونومه. وكان مدرسونا هم في مثل حال شيوخ الكتاتيب غير أنهم لا ينتظرون مكافأتهم من الإوز والبط بل من شغلنا معهم في غيطانهم ومساعدتهم في تربية حيواناتهم. فناظر المدرسة، وهو أيضا يدرس لنا مادة اللغة العربية، ولا أعرف لماذا وقع الاختيار على هذا الرجل تحديدًا لتدريس اللغة العربية؛ فهو مثل غيره لم يتخرج في جامعة ولا معهد ولا يحمل حتى الشهادة الإعدادية. هذا الناظر كان يصطحب معه مجموعة من التلاميذ قبيل الفسحة إلى حقله لكي يجهزوا وجبة الغداءِ للبهائم التي يمتلكها، وكان يمتلك رؤوسًا عديدة من الماشية التي لا تشبع. كان يختار التلاميذ الكسالى أو بتعبير مدرسي "بلداء"، وكنا نجد هؤلاء الكسالى يحصلون على أعلي الدرجات في امتحانات الشهور في مادة اللغة العربية. عندما يدخل الناظر إلى الفصل بقامته المرتفعة ورقبته الطويلة كنا نشم رائحة الروث التي تنتشر على مسام جلده وعلى حذائه وملابسه. فهو لم يكن فقط يذهب إلى الغيطان، ولكنه أيضًا يقوم بحلب الماشية وجمع الروث ونقله إلى السطح لكي يجف من أجل بيعه أو استخدامه في اشعال فرن الخبيز، وكان يأخذ

جزءًا من هذا الروث إلى حقله كسمادٍ طبيعي. في الحقيقة كانت النساء يحسدن زوجته على هذا الرجل؛ فهو يقوم بكل أعمال المنزل ماعدا الطبخ والغسل والكنس، وزوجته كانت على عكسه؛ فهي دائمًا نظيفة ولها ابتسامة هادئة يشع منها الكثير من الود. كان يربي عجولًا قوية؛ لذلك يذهب إليه معظم الفلاحين ومعهم جواميسهم لكي يلقحوها، فكنا نرى ناظر المدرسة يمسك بمؤخرة الجاموسة، ويدعو العجل لتلقيحها، وهو يلف ويدور حولهما إلى أن تتم عملية التلقيح. كنا نحسُّ أو نتمنى أن يموت هذا الرجل بنطحة من قرن عجل. أحيانًا كان يطلب من أحدنا القراءة بينما ينتحي لنفسه ركنًا على دكة خشبية في مؤخرة الفصل، ويذهب في نوم هادئ، وعندما ندرك أنه راح في غفوةٍ يتوقف الذي يقرأ فنسمع صوته خارجًا من بين ذراعيه المعقودتين كوسادة تحت رأسه: "كمل يا بني". لقد رأيته قبيل موته، كان أشبه بنبات ذابل، وكانت عيناه تَعِيستين وغائمتين ولسانه يتحرك بصعوبة، يغمغم ببعض الكلمات يمكن أن تفهم منها بأنه يرحب بك ويسألك عن أحوالك. لم أعرف لِمَ هو تعيس إلى هذا الحد؟ لم يتربَّ لديَّ إحساس باللغة العربية، كنت أحب النصوص وموضوعات القراءة، غير أني لم أكن أعي أنني أمام لغة

بكامل هيئتها، نحوها وصرفها وموسيقاها وبنيتها وأيضا دينها إلَّا عندما دخلت المدرسة الإعدادية. نعم أدركت أن للغة العربية دينها؛ فالتلاميذ المسلمون أفضل مني في القواعد وفي حفظ الآيات القرآنية والأحاديث ويرددونها بسهولة، فكنت أحاول تعويض ضعفي الواضح في القواعد برفع معدل الشغف عندي بالنصوص والقراءة. كنت أسأل عن لغتي، إن لم تكن العربية التي أتحدثها ويتحدثها الجميع حولي، وأتعلمها في المدرسة، وأكتب بها، فأية لغة هي لغتي؟ فيقال لنا دائما لغتك هي اللغة القبطية. أبحث عن هذه اللغة فلا أجدها إلا في كتاب أسود قديم تفوح منه رائحة بَخور، هو كتاب الصلوات الذي يوجد منه نسخة واحدة موضوعة بمهابة داخل الكنيسة. عندما درست قصيدة لـ (إيليا أبو ماضي) وعرفت أنه مسيحي، فهمت أنه يمكنني الكتابة وتأليف القصص باللغة العربية، فها هو مسيحي يكتب شعرًا باللغة العربية الفصحى. ليس هذا وحسب بل إنه يكتب شعرًا رقيقًا وموسيقاه عذبة كأنك تنصت لخرير مياه لا مرئية أو ترى امرأة تطرز ثوبًا من الحرير. في هذه السنة التي قرأت فيها أشعارًا لـ (إيليا أبو ماضي) أحببتُ إلهام. إلهام فتاة سوداء وممتلئة كانت تعيش في الجزء الجنوبي من القرية، أي إنها كانت

مسلمة؛ فالقرية مقسمة إلى قسمين، معظم المسلمين يعيشون في الجزء الجنوبي بينما يعيش معظم المسيحيين في الجزء الشمالي، وكانت هناك نكات تجري على كل جانب. فإذا قال لك واحدٌ بأنك من "قبلي الدكان" فهذا يعني أن دماغك غليظة، لا تفهم، مثل المسلمين، ولم أعرف يومًا بالطبع ماذا يقول المسلمون عن الذين يعيشون في الجزء الشمالي. كانت إلهام تأتي كل صباح وتقف على رأس شارعنا وتنتظر خروجي. دائمًا كنا نختلق الأعذار لكي نذهب مبكرًا إلى المدرسة قبل معظم الأولاد والبنات، مرة نقول هناك مجموعة مدرسية قبل الطابور، ومرة نقول هناك امتحان وعلينا أن نراجع دروسنا... إلخ. تسير بجانبي وهي تحكي معي عن إخوتها وأنا أحكي معها عن إخوتي، وعندما نبتعد عن البيوت وندخل في الصحراء تمسك بيدي. كانت هي دائمًا التي تأخذ المبادرة وأنا دائمًا أنتظر دخولنا الصحراء. كنت أقول في نفسي إن الآية التي في نشيد الأنشاد "حبيبتي سوداء وجميلة" قد نزلت من أجل إلهام؛ فلم تكن هناك فتاة من المسيحيين سوداء. كانت إلهام استثناء بين الفتيات ومن بعدها صار الجمال أسود. كانت تقول إن ما يزعجها بأننا لا نستطيع أن نتزوَّج، والأقسى أنني لا أستطيع أن أراك بعد الإعدادية،

فأنت ستذهب إلى الثانوية العامة أما أنا فربما زوجني أهلي بابن عمي الذي يدرس بالمعهد الأزهري، وأنا كنت لا أفكر بشيء إلا بيدها التي تشتبك بيدي في حب بالغ، وبشعرها المنسدل على جبهتها، وبعينيها الغارقتين في سوادهما وتنورتها البنية التي تلتف على جسدها بدقة فتُظهر كل مفاتنها لي؛ ردفيها الممتلئين، وركبتيها القويين، ثدييها النائمين مثل ثمرتين طريتين. هل المرأة تفكر بالزواج والرجل يفكر بالحب؟ ذهبت إلهام بعد الإعدادية كما كانت تقول. رأيتها مرة أو مرتين أثناء دراستي الثانوية، وفي المرتين كنت على مسافة قاسية منها، هوة عميقة ظهرت فجأة بيننا، ثمة رجل آخر يمشي معها أو يتقدمها بخطوة وهي تتبعه، ربما هو ابن عمها الذي حدثتني عنه. كانت تنظر لي خلسة كأنها تحاول معرفة ما الذي تغير فيَّ. كأنها كانت تقول لي من جديد، ألم أقل لك ما رأيته؟ ها أنا الآن هنا وأنت هناك. حتى هناك هذا لا يمكن أن يكون مرة واحدة وينتهي، دائمًا هناك متجدِّد ومتغيِّر ومتبدِّل. وفي الجامعة رأيتها مرة واحدة، وكانت في هذه المرة ترتدي نقابًا، ورغم ذلك، استطعت التعرف عليها، أحسست بأن هناك عينين تتطلعان إليَّ. ربما شممت رائحة قديمة، أو رأيت في الأفق قمرها يطل من جديد، وبالفعل

كانت هي. رأيتها تضحك، أو خيل لي بأنها تضحك. كانت تحمل طفلة، وبجانبها رجل يرتدي جلابية بيضاء، وله لحية غير مهذبة، وشبشب بلاستيك، وساعة رخيصة تلمع. ربما كانت المرة الأولى التي أتأكد فيها من أن إلهام قد مضت ولا يمكن أن أراها ثانية. كانت إلهام مثل اللغة تؤسِّس فيَّ انشطارًا. ربما على المسلمين أن يتعلموا اللغة القبطية لكي نوزع هذه الانشطارات بحصص عادلة على الجميع. ليس هناك خلاص، من قال هذا، نحن منذورون لقدر فريد.

لي لي

في كل مرة أذهب إليها، كنت على أتم الاستعداد أن لا أعود للبيت ثانية لو هي أشارت عليَّ بذلك. كنت مهيأ للذهاب إلى خصرها وإلى شعرها وإلى يديها وإلى عينيها وإلى شفتيها وإلى فخذيها وإلى كعب قدميها وإلى صندلها الأسود. لو قالت لي ابق هنا بجانبي لبقيت ساكنًا دهرًا مثل حيوان مدجن أو غبار يحوم حول فستانها. ولكنها قالت: "سأصنع لك سندويتش من الجبنة وتعود إلى البيت".

قلت لها: "لا أحب الجبنة".

قالت: "إذن سأجلب لك فاكهة".

أحضرت برتقالًا، ودخلت إلى المطبخ ثانية. كنت أريد أن أتبعها وأشم رائحة مطبخها. كانت تسير حافية بعد أن تخلصت من صندلها عند عتبة الباب. اتسعت عيناها بضحكة رائعة عندما وجدتني معلقًا خلف عربة الحانطور التي تقلها إلى البيت. قالت لي تعالى. دخلت البيت، وانتظرت قليلًا بجانب الباب إلى أن مدت يدها وأمسكت يدي، وأجلستني على كرسي المائدة. أحسست بيدي ترتعش وقلبي سيسقط بجانبي. تحركت إلى المطبخ مثل قنديل زيت. وجدت نفسي أفتح الباب وأخرج إلى الشارع ينتابني بكاء مرير وإحساس بالمهانة. لي لي لا تعرف، أو تعرف ولكنها تعاملني بطريقة سيئة. لي لي كنت أحبك. لي لي كنت أسميك هالة وكنت أحلم بعسل شفتيك وكنت أهرب من قريتي صوبك...

صعود

صعدت إلى سطح البيت. لا من أجل حراسة الكتاكيت من الغربان ولا من أجل ملاقاة الله على السطح؛ فالوصايا، كل الوصايا نزلت وتم خيانتها واحدة تلو الأخرى. لم تعد هناك وصية إلا وتم انتهاكها وتذوق خمرتها وقضم تفاحتها. إن الخطيئة لهي تفاحة حرة وخمرة معتقة وينبوع مختوم. كل خطيئة هي نجمة تلمع في سقف العمر. ها إني كلما ارتكبت خطيئة أحسست أن جسدي يزدان بنجمة ورأسي يلمع بأفكار غير مسبوقة. كانت لي فرحة قديمة، خبأتها في قفص الحكايات. أذهب إلى القسيس لا لكي أعترف بخطيئتي ولكن لأزين له طريق الخطايا، أرسم له ملامح كل خطيئة وأقص عليه كل التفاصيل. كنت أراه يلهث وراء كثبان وهمية، وفي الأخير يمنحني المغفرة ويحمل هو قصصي الخرافية. ربما في معظم الحالات كنت أحكي له خطايا أريد أن أرتكبها، وعندما يمنحني المغفرة يصير عليَّ بالضرورة أن أرتكبها وأنا حر. وأيضًا لم أصعد من أجل النظر إلى النساء وهن عاريات في طشوتهن، لأني ببساطة لم أكن نبيًّا ولم أكن ملكًا. لي محاربون في الصف الأول أقدر على التخلص منهم. لم تكن هناك، امرأة لي في القرية، أعرفهن كلهن، لم ترُقْ أية امرأةٍ لي، غير التي تأتيني في الحلم، وتقودني عبر ثمارها بمودة فائقة، كأنها تكشف لي عن فردوس الله في حلم جسدها النائم تحت وسادتى. تأتيني كلما استبدت بي الشهوة وتملكتني رغبة في الموت أو في

السقوط إلى الماء. تأتيني كلما رأت جسدي يتلوَّى فوق السرير كأنه مصابٌ بمس شيطاني. كأن نارًا تلعب لعبتها تحت الجلد. مريض حبًّا أيها الحلم، وزوجتي لا تسكن بغرفتي بل تنظر إليَّ من فوق سحابة أو من فوق موجتها الهاربة إلى كهوف الزمن البدائي. أشتعل هنا مثل عيدان القمح في حقل مايو. قلت أصعد إلى السطح ربما تجد روحي من تحب أو ربما تظهر لي قارورة الوقت لكي أنضج سريعًا وأكون حلوًا في عين الموت. قلت أصعد إلى سطح أمي لكي أجرب الطيران.

مداعبة

كنت أداعب شفرة سكين كأني أداعب بظر امرأة. لذة تسري في بدني مثلما يسري المخدر. لذة مريرة ومتوهجة، تجتاح كل خلاياي، كل العظم، وتسكن فروة الرأس. لذة تغلي، أسمع صوت أبخرة تصعد من جلدي. رأيت أشباح اللذة تلمع تحت وهج الشهوة العارمة. شهوة لا تقاوَم للقتل، للدم. شفرة السكين تلمع بينما (كامو) يتنزه على شاطئ مشمس. رمال ناعمة تتسرب إلى أنبوب الروح. هذه الروح التي تنخُر العمود الفقاري، تقطع المسافة، الآن، بأقصى سرعة، من فروة الرأس حتى أخمص القدم، لا شيء يضاهي سرعة الروح وهي تتشهى التنزه من أجل الدم. الروح دم يتخثر في الأوردة وفي الشرايين. تجاعيد تصعد إلى الوجه بغتة، بينما الفم يلتهم الطعام الجاهز في علب الصفيح أو الورق المقوَّى.

مطاردة

كلاب ثلاثة في مطاردة مقدَّسة. كلاب ثلاثة باللون الأبيض وباللون الأسود وباللون الأحمر يتعقبونني. مرة يظهرون لي ثلاثة، ومرة يظهر كل واحد بمفرده. لكل كلب سلاحه الخاص به وطريقته في الهجوم والنهش وأيضًا في التراجع. يتبادلون الأدوار على جسدي. مرَّة يقودهم الأبيض، ومرَّة يقودهم الأسود، ومراتٍ أكثر يقودهم الأحمر. يغرزون مخالبهم في جسدي ويلعقون دمي.

هيلانة

كنا نتقاسم الخبز ذاته وكوب الماء ذاته والبرودة ذاتها. هل تذكرين عندما منحك جدك كوبَ ماءٍ مليئًا بالثقوب وقال لك: "روحي امليه من الوابور". رحت تملئين الكوب عشرات المرات بلا فائدة، وفي المرة الأخيرة سقطتِ في حوض الوابور وتم إنقاذك من الغرق، وجئت تحملين ملابسك المبللة وكوب جدك المثقوب، وتشتمين جدك الأحمق

ببكاء حلو. أنا الآن أحمل كوبًا مثقوبًا
مثل كوب جدك، وأيضًا ربما أحمل
نفس الحُمْق، لكن بدون بكاء وبدون
شتيمة. أذهب إلى جهات شتى وأعود
فارغًا.

....
....
....

في بيت جدي، كان خالي يدعوني للسهر وللعشاء. كان هو الجهة الوحيدة لي في أيامي الأخيرة بالقرية. كانت كل الأبواب قد أغلقت في وجهي. هو من يتحمل نزقي وفلسي وقرفي من الجميع[8]. كان خالي يخبئ صحن العدس عندما يسمع صوتي في الطابق الأرضي، بجوار فرن الخبيز، وأمام حظيرة المواشي، الحظيرة التي كانت تنفتح إلى شارع آخر، إلى جهة أخرى من القرية. كانت الفتحة التي بحائط خلفي من الحظيرة تدفع بنا إلى شارع من الجهة الجنوبية للقرية، وعبر هذه الفتحة نقفز فجأة إلى النصف الجنوبي من الناس؛ البنت التي كانت تفتح ساقيها لتعرض على المارة غابتها، جحر الفئران بين فخذيها. كنت أقترب منها وأشمه فإذ رائحة نتنة تقبض على روحي، والرجل الذي يختبئ في فتحة فرن الخبيز مذ أن تركته

[8] انظري: لم أكن أفكر بأحد سواك. في هذه المرحلة لم تكن لديَّ الفرصة للتفكير بشيء آخر سوى أن ألقاك، وأنت كنت دائمًا تهربين. إلى أين كنت تهربين؟ ثمة كلاب كثيرة تلتف حول المنزل، حول الحلم، وحول الحقل. قلت لي: تعالَ معي إلى جرجا. وأنا قلت لو أردت ذلك سأفعل. كانت رائحتك تشبه رائحة لحاء قصب السكر. حلمت بالذهاب إلى جرجا. هل حقًّا قلتِ لي يومًا تعالَ إلى جرجا؟ فيولا: ها إني أرتعش في وحدتي. أحس أن كلبًا يجثم فوقي، يُنشِب مخالبه في صدري، يبول عليَّ ويلهث، يبول ويلعق جسدي بلسان لزج، يداعب الخصيتين بشهوة، يضغط عليهما بأسنانه. إنه كلب شبق. عطر شيطاني يفوح من تحت جلده. أراني جثةً تحته. ها هو يقف فوقي. بدأ في تمزيقي الآن.

البنت التي كان يريد الزواج منها. كان شعر رأسه صار طبقة روث يحملها أينما يذهب، وأظافر يديه ورجليه تُركت حرة بدون تقليم حتى صارت سكاكين صغيرة في أطرافه، جلده طبقة رمادية سميكة متكسرة، وفقد القدرة على الكلام، يصدر أصواتًا وفقاعات ماء. كان بالنسبة لي صورة لِنبوخَذ نِصَّر ملك بابل عندما عاقبه الرب من أجل خطيئة ما. ستعود إلى الأرض في صورة حيوان إلى أن ينقضي زمن عقوبتك. "**يطردونك من بين الناس، وتكون سُكناك مع حيوان البَرِّ،ويُطعمونك العشب كالثيران، ويَبلونك بندى السماء،فتمضي عليك سبعة أزمنة، حتى تعلم أن العليَّ مُتسلط في مملكة الناس، ويُعطيها من يشاءُ**"[٩]. أحكام الرب قاسية، ولكن من يتقبلها في فرح سيفوز في

[٩] سفر النبي دانيال.

......كم الساعة الآن؟ تأخرت. تجاوزت الخامسة مرتين. آنية الوقت تحطمت. كان الوقت شتاءً عندما رأيتك أول مرة فيولا، لأني أذكر الجاكت الأحمر الغامق الذي كنتِ ترتدينه. أمي تصعد إلى حافة سريري في الطابق الثاني من البيت، تجلس عند قدمي "**برضو نمت وسايب النور والع والكتاب واقع من إيدك فوقك**". كنت أحس أمي، لأن الروح لم تكن تركت جسدي بعد، كانت لا تزال عالقة في مكان ما. ***قالت لي:"تبدو متشردًا في هذا القميص"***. قلت لها: أنتظر قميصًا تخيطينه أنتِ.. قميصًا يشبه بلادك". صارت الشمس تضربني بقوة، وهي تمر أمامي، في صحراء، وصورتها تنطبع كنمرة على جدار الكهف، هل هذه هي الأبدية؟ ***أبي لن يوافق على زواجي منك. أنا مؤمنة، وأنت..*** كنت نسيتك يا فيولا. الكتابة حملتك لي. عندما حاولت تذكرك فشلت. وجهك كان يأتي مثل نقش باهت في حجر. الكتابة الآن تمنحك شفتين أعذب مما رأيت وأكثر سوادًا، تمنحك وجودًا أثيريًّا أفضل مما كنت أحلم وأنا بجوارك. **طيب مش كنت تتعشَّى وبعدين تنام. يا ابني كل ليلة تنام**

نهاية المطاف. كان هذا الرجل المعاقب لخطيئة ما يخرج من فرن الخبيز فقط من أجل الأكل ومن أجل البراز. نسيت خالي في الطابق الثاني، ولكن هيئة الرجل المذنب كانت صورة توراتية بدرجة مرعبة.

- بتأكل بس جبنة يا خالي؟
- هاعمل إيه يا ابن أختي. مرات خالك ما عملتش حاجة.

على معدة فاضية. كنت تشبهين فتاةً تخرج من جداريات المعابد. كنت فتاةً من رخام. كتفاك حلوتان، ظهرك وهو مغطى بنمش بني كتكملة لألوهية ناقصة. ردفاك وهما يتحركان وكأنهما في صلاة. كنت لي أكثر حقيقيةً من فتاة معبد مصري قديم.

كم الساعة الآن؟ تأخرت.

ليت قاعدة سفينتي تتصدَّع! فأذهب إلى البحر.(رامبو).

أمي على حافة السرير تحكي لي عن خلافات جدي المستمرة مع أخيها الأصغر، وأنا أنظر إلى موجة هناك تحمل صورة ضائعة. وكنت أصرخ في جسدى: انتبه الوقت. الوقت. الوقت. **طيب يا ابني شكلك نعست هاسيبك تريح**. بحذر تسحب الكتاب من يدى، وتطفئ النور وتذهب إلى نومها. وهي تردد أدعيتها وصلواتها السرية. كنت أنا محمولًا على حقل من القمح وأبحث عن سرة فيولا الضائعة. عليك أن تجد السرة لكي يكتمل الموت. أهي سرة أم بنفسجة؟ لو لم تجد سرتها ستظل تنزف حتى يوم الدينونة. *هل تريد أن تُدخل إصبعك في جرح سري لكي تشهد أني أنا الآتي من الموت وأبدًا لن أموت ثانية. هات إصبعك. ضعه هنا.* الموت ناقص. الكتابة هذه المرة تصفية حسابات يا فيولا. الكتابة تأتي مثل حرب أهلية مقدسة. لا أكتب هربًا، ولا حلمًا، ولا تعويضًا ولا تساميًا، أكتب من أجل إعادة جرد للممتلكات هههههههههههههه عفوًا للمفقودات. إعادة جرد للمفقودات وذلك بناءً على ذاكرة أيضا أصيبت بالعطب.

= ....

كنت أشم رائحة العدس وهي تنبعث من تحت الطبلية. هو يعرف أني أكره العدس. أكره العدس والبصارة. خالي لا يعرف سبب كراهيتي للعدس ولا للبصارة. أقول له بأن معدتي ضعيفة لا تتحمل الثوم والطماطم والزيت معًا. ولكني وجدت نفسي أكره العدس منذ أن تركت هذه الخرافة العظيمة التي تمجد الجسد المرذول والروح المنكسرة. العدس طعام دينى، هو شعيرة، أما البصارة فهي وجبة تصلح فقط للفقراء.

– خالي، طلع العدس من تحت الطبلية. يلّا اتعشى.

يضحك خالي ضحكته الرائعة، ومن الداخل أسمع صوت امرأة خالي.

– محدش بيعرف حركاته غيرك.

خالي هو أصغر إخوته، وهو كان الأكثر تمردًا على سلطة الأب وسلطة الكنيسة. معارك يومية دارت بينه وبين أبيه، وعقب كل معركة يترك القرية ويسافر بحثًا عن عمل مثل أولاد الفقراء، ويستدين من أبناء عمومته من أجل زوجته، التي كانت تقضي يومها وليلها في بكاء من أجل عودة زوجها الغائب. هي تعرف أن ابن عمها مجنون وقبلت الزواج به. هو الأصغر سنًّا والأقل عقلًا، ولكنها مثل كل

امرأة تصبر على زوجها؛ فمصيره لزوجته وبيته كما تقول تعاليم الرب. لا يوجد فكاك لهذه العقدة إلا بالموت. كانت المعركة الفادحة بعد أن رفض جدي زواجه من البنت التي يحبها. لا أذكر كم من الزمن مضى عليه وهو خارج البيت. كان دائمًا يقول لي: "مش هاسامح سيدك أبدًا لغاية ما اموت". خالي هو أول من رأيته يصنع الناي من عود الغاب ويتدرب عليه بنفسه ويحاول ضبط تنفسه على إيقاع أغنيات أم كلثوم، وعندما يذهب إلى الغيط يحمل معه قلمًا وأوراقًا لكي يسجل الأشعار التي يكتبها على شكل مربعات، ويطلق عليها اسم "المربوع". كان يردد أشعار ابن عروس وهو لا يعرف ابن عروس، ويطلب مني كتب شعر العامية، وخاصة بيرم التونسي. مر على زواج خالي خمسة عشر عامًا ولم ينجب، وعندما أنجب ابنه الأول تأكد لي أن عشقه قد مات.

كنت أتركه قُبيل الفجر، وعندما يودعني على عتبة الباب يقول لي: "خلي بالك من كلبة فلان، وكلبة فلان، ... أما كلبة فلان فهي مسعورة وفرجها واسع". أضحك وأنا أجاوبه: "خالي اطمن أنا أحب الكلاب".

* * *

= .... لم أعثر على شيءٍ حتى الآن. ويبدو لي أن الموت أبيض. هل الموت أبيض. أمي نزلت من على الدرج وتذهب الآن صوب حجرة نومها. هي لا تعرف أنها لن تراني ثانية. لم تكن تعرف وهي بجانبي، على حافة السرير بأنها تنظر لي للمرة الأخيرة. لم تكن تعرف أني ميت. بدأت أحس بماء ينداح من شقوق جسدي. قطرات ماء تنساب من السقف، من خشب السرير، من الملاءات. ماءٌ يتدفق. فيولا، هالة، هيلانة، لي لي، إلهام، حنان، ....

كم الساعة الآن؟ تأخرت.

هنا[10] على باب القبر حجر يداعب هذا العدم الذي ينمو مثل طحلب حول صفحة الوجه المتعب، المتعرق، الناتئ مثل خشب. هنا على باب القبر ضجة عدم وأصدقاء نبيذ وكتب. هنا على باب القبر يد تدق ولا أحد.

---

[10] ثمة كلبٌ لا مثيل له في النص يعوي. كلبٌ لا مثيل له. عيناه تفاحتان ذهبتيان. ظهره منتصب مثل مسلة نائمة. ذيله يجر الكتابة إلى حتفها.

كلب في نوبة حراسة.

أريد أن أضع قلبي في كفك لكي يرقص من جديد.


elles